حياة

طارق بن زياد

فاتح الأندلس

تأليف
محمود شلبي

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

احمد الله.. الذي لا إله إلا هو...

وأصلّي وأسلّم على نبيّه... الذي لا نبيَّ بعده..

وبعد...

اذا سمعتَ اليوم مَن يقول لك: إن جيوش أمريكا ودول حلف الأطلنطي كلها قد سقطت في عام واحد منهزمة حربيًا..

سارعت إلى تكذيب الخبر لأنه غير معقول!!!

هذا بالضبط ما صنعه « طارق بن زياد » في عام واحد!!!

لقد فتح دولة عظمى في سنة واحدة... هي دولة الأندلس!!!

لقد سقطت إسبانيا بأكملها تحت قدميه!!!

فما استطاعت أن تقوم... وما استطاعت له صَدًّا!!!

وإسبانيا بالنسبة إلى العالم القديم... كأمريكا وحلفائها بالنسبة إلى عالم اليوم...ذلكم « طارق بن زياد »!!!

الفاتح الذي لم يُهْزَم له جيش قطّ.

محمود شلبي

كانَ ذَلِكَ . . .

في الْكِتَابِ . . .

مَسْطُورًا . . . ؟!

قصة الأندلس...

بدءًا من الفتح الاسلامي... وانتهاءً بسقوطها سقوطًا مأساويًا...

هي من أعظم الأمثال التي ضربها الله للناس على ممر الأجيال...

ودليل من أكبر الدلائل... على أن حياة الناس تنتظمها نواميس إلهية حاكمة... لا يفلت من قبضتها أحد... أو أمة من الأمم!!!

أي دولة قائمة على العدل تثبت وتستمر... كافرة كانت أم مؤمنة..

وأي دولة قائمة على الظلم تزول وتُدَمَّر تدميرًا... مع صرف النظر عن إيمانها وكفرها...

وهذه الأندلس لم تكن بدْعًا من الأمم...

وإنما أسسها كوكبة من الفرسان على أساس من الإيمان والعدل... فصفَّق لها الناس...

ومضت الأيام وانغمسوا في لذاذات الترف... وأخطبوط المظالم...

فوَقَع بها القانون الحتمي... « فَدَمَّرْناها تَدْمِيرًا »!!!

هكذا... يحدث... وحتمًا يحدث... ولن تجدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبْديلًا!!!

دولة استمرت ثمانمائة سنة... من سنة ٩١ هـ إلى ٩٠٥ هـ... أو تزيد...

كانت دولة عظمى بكل معاني الدولة العظمى... عسكريًا... واقتصاديًا... وعلميًا.. وفنيًا... وخُلُقيًا...

كانت تموج بالرفاهية في كل شئونها...

وتقف شامخة تزهو فوق شبه جزيرة اسبانيا... يهابها جيرانها.. ويخطب وُدَّها الجميع...

فلماذا اسقطت... واستؤصلت عن آخرها؟!!

لأنها انقسمت على نفسها...وتحولت الى دويلات متقاتلة... متظالمة...

وهذا نذير الزوال... فاندفع اليها المتربصون على حدودها...

والتهموها... ولم يرحموها... ولكن أبادوا أهلها... ودمَّروها تدميرًا!!!

هل كان ذلك في كتاب الله مسطورًا؟! نعم... فهو سبحانه القائل:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

وهو سبحانه القائل:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

أَمَرْنا مُتْرَفيها: أمرناهم بالعدل...

ففسقوا فِيهَا: فخرجوا عن أصول العدل وظلموا في جميع الأنحاء...

فحقَّ عليها القَوْلُ: فتحتَّم وقوع الناموس الإلهي بها... وهو مؤاخذة الظالمين..

فدَمَّرناها تدميرًا: كما حدث لأهل الأندلس... حيث أزيلت دولتهم... وأُخرجوا من البلاد كلها... وجعلناهم أحاديث!!!

لقد كانت قصة الأندلس... مثالًا رائعًا...

ليفهم الناس جميعًا ... أنَّ النواميس الإلهية للجميع بالمرصاد ...

﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عذَابًا نُكْرًا﴾ .

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكانَ عاقِبَةُ أمْرِهَا خُسْرًا﴾ !!!

في خلافة...
الوليد بن عبد الملك...؟!

في سنة ست وثمانين من الهجرة تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك...

وفي سنة تسع وثمانين استعمل الوليد بن عبد الملك... موسى بن نُصَيْر على إفريقية...

فوصل موسى الى افريقية... فقاتل البربر وهزمهم حتى بلغ طَنْجة...

واستعمل على طنجة مولاه... طارق بن زياد... وجعل معه جيشًا كثيفًا جلّهم من البربر...

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين... وفيها غزا طارق بن زياد... مولى موسى بن نُصَير... الأندلس في اثني عشر ألفًا...

ودخل موسى بن نُصَير الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين في جمع كثير...

جاءه رسول الوليد اثناء فتوحاته يأمره بالخروج عن الأندلس والقفول اليه...

رجع موسى... ووافاه طارق... فأقفله معه... ومضيا جميعًا...

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى...

وسار الى الشام... وحمل الأموال التي غُنمتْ من الأندلس... والذخائر والمائدة...

ومعه ثلاثون ألف بكْر من بنات ملوك القوط وأعيانهم...

ومن نفيس الجوهر والأمتعة ما لا يُحْصَى... فورد الشام والوليد حيّ...

وكان قد كتب إليه وادّعى أنّه هو الذي فتح الأندلس... وأخبره خبر المائدة...

فلما حضر عنده عرض عليه ما معه وعرض المائدة...

ومعه طارق... فقال طارق: أنا غنمتُها...

فكذّبه موسى!!!

فقال طارق للوليد: سله عن رجلها المعدومة...

فسأله عنها فلم يكن عنده منها علم...

فأظهرها طارق.. وذكر أنه أخفاها لهذا السبب...

فعلم الوليد صدق طارق...

وإنما فعل هذا لأنّه جلسه وضربه... حتى أرسل الوليد فأخرجه!!!

وفي سنة ست وتسعين... مات ا لوليد بن عبد الملك..

وكانت خلافته تسع سنين وسبعة أشهر...

وصلى عليه عمر بن عبد العزيز...

وكان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلائفهم...

بني المساجد... مسجد دمشق... ومسجد المدينة... على ساكنها السلام... والمسجد الأقصى... ووضع المنائر... وأعطى المجذّمين ومنعهم من سؤال الناس... وأعطى كلّ مُقْعَد خادمًا... وكلّ ضرير قائدًا...

وفتح في ولايته فتوحًا عظامًا ... منها: الأندلس...
وكاشغر والهند!!!

★ ★ ★

أقول: هذا شيء عن الخليفة الأموي الذي تمَّ فتح الأندلس في عهده!!!

تمهيد[1]

الأندلس...

والأندلسيون...؟!

(١) نقلًا عن كتاب «الأدب الأندلسي» تأليف الدكتور احمد هيكل... مختصرًا.

١ ـ اسم الأندلس

لم تُعرف شبه الجزيرة التي تشمل حاليًا دولتي إسبانيا والبرتغال باسم الأندلس، قبل أن تَعرف المسلمين، وإنما عرفت في أقدم عصورها باسم إيبريا نسبة إلى الإيبريين الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر.

ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم إسبانيا. وهذا الاسم قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها، وقد استنبطوه من تعبير فينيقي، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان؛ وهذا التعبير الفينيقي i-schephan-im يعني « شاطئ الأرانب » . ويقال في تعليل ذلك: إن الفينيقيين قد صادفوا كثيراً من الأرانب على الشاطئ الإيبري الذي نزلوا به.

كذلك كان الجزء الجنوبي من إسبانيا يسمى باسم « بتيكا » وكان ذلك في العهد الروماني، ثم سمي باسم « ڤندليسيا » حين سكنه الوندال بعد الرومان على ما سنوضح فيما بعد.

فلما جاء المسلمون بعد ذلك أطلقوا على شبه الجزيرة جميعاً اسم الأندلس، وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم وأدبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الإيبرية.

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أخذه المسلمون من « وَنْدَلُس » وهو اسم

لبعض القبائل الأوربية الشمالية، التي أغارت في أوائل القرن الخامس الميلادي على ممتلكات الرومان، وكان هؤلاء الـ « وندلس » أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال ـ كانوا قد وصلوا الى جنوب إسبانيا وسموه باسم « ڤندليسيا » نسبة إليهم. فلما جاء المسلمون فيما بعد وعرفوا ما كان من أمر الـ « وندلس » بتلك البلاد سموها « بلاد الأندلس » وكأنهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها، وكل الذي فعله المسلمون من تغيير في اسم « وندلس » هو همز الصوت الأول، ومن هنا أصبحت الكلمة أندلس، بدلًا من وندلس.

وقد بقي اسم « الأندلس » الذي أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة، ولم يخرج بخروجهم، ولكنه قد أصاب شيئًا من التطور في لفظه، وشيئًا من التطور كذلك في معناه. أما اللفظ فقد أصبح في اللغة الاسبانية « اندلثيّا » بدلًا من أندلس. وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعًا.

والأقاليم التي يشملها اسم « اندلثيّا » الآن في إسبانيا هي ألمريَّة، وغَرْناطَة، ومالَقَة، وجَيَّان، وقُرْطُبة، وإشبيلِيَة، وقادس، وأوْنَبَة..

٢ ـ لمحة جغرافية

بلاد الأندلس شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوربا. والمياه تطوف بها من كل جوانبها، عدا جانبًا واحدًا هو الشمال الشرقي، حيث تحدها جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا. أما تلك الأمواه التي توشك أن تطوق الأندلس، فهي مياه البحر الأبيض من الشرق، ومياه المحيط الأطلسي من الغرب والشمال الغربي، ثم مزيج من مياه البحر والمحيط في الجنوب حيث

مضيق جبل طارق(١) ملتقى البحر بالمحيط، والفاصل الضيق بين شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا، فهذا المضيق يبلغ عرضه في أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو مترًا تقريبًا، ولولاها للاصقت إفريقيا من الشمال أوربا من الجنوب.

وتؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها: الهضبة الكبرى التي تسمى «مِسِيتا» وهي تشغل جزءًا هائلًا من مساحة شبه الجزيرة. وتأتي بعد تلك الهضبة سلاسل جبال توشك أن تطوقها، فمن الجنوب تمتد جبال «سِيرًا مُورِينا» أي سلسلة الجبال السمراء وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبي كبير ينبسط حتى أقصى الجنوب. وفي شرق الهضبة تمتد كذلك سلسلة جبال أخرى. هي الجبال الإيبرية، وهي التي تفصل بين الهضبة وسهل آخر هو السهل الشرقي، الذي ينبسط حتى ساحل البحر الأبيض. وفي شمال الهضبة تعلو جبال أخرى، هي الجبال «القنطبرية»، وهذه الجبال تليها شمالًا بعض الأقاليم السهلية الضيقة. وفي الغرب تنحدر الهضبة حتى تنتهي الى سهل ممرع كبير هو السهل الغربي.

وتجري في الأندلس أنهار عديدة، أهمها نهر الوادي الكبير، الذي يسميه الإسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذي أطلقه العرب، ولكن مع تحريف يسير فيقولون: «جواد الكبير» وهذا النهر يروي أكثر أراضي السهل الجنوبي، ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين قرطبه وإشبيلية ثم يصب غربًا في المحيط الأطلسي. ثم يلي الوادي الكبير شمالًا نهر وادي يانه، ويسميه الإسبان كذلك باسمه العربي، فيقولون «جوادايانا وبعد هذا النهر يأتي شمالًا نهر التَّاجُه، ويسميه الإسبان «التاخه وهو يمر بوسط الهضبة، وتقع عليه مدينة طليطلة العظيمة. وبعد كل هذه الأنهار يأتي شمالًا نهر دُوَيرُه، الذي يسمى عند

(١) هذا الاسم أطلق على المضيق بعد أن عبره طارق بن زياد من المغرب إلى الأندلس، واسمه العربي قبل ذلك بحر الزقاق وكثيرًا ما يستعمل حتى بعد الفتح ولكن الأوربيين لا يزالون يستعملون اسم جبل طارق لهذا المضيق، فيقول الأسبان مثلًا Gibraltar.

العرب أحيانًا بالوادي الجوفي والذي يطلق عليه الإسبان اسم « دورٌ Duero » وهو كسابقيه ينحدر إلى الغرب ويصب في المحيط الأطلسي.

على أن هناك أنهارًا أخرى تسير عكس تلك الأنهار، حيث تصب شرقًا في البحر الأبيض، وهي تلك الأنهار التي تروي الشرق والشمال الشرقي تقريبًا. وأهم تلك الأنهار: نهر إبْرُه الذي يروي إقليمًا عظيمًا من أقاليم الأندلس، تبرز بين مدنه، مدينة سرقسطة[1].

ومن الأنهار الشرقية كذلك الوادي الأبيض، الذي تطور اسمه على ألسنة الإسبان إلى « جوادا لابيار » Guadalaviar. وهذا النهر يروي جزءًا كبيرًا من شرق الأندلس ويمر بشمالي مدينة بلنسية، المدينة الأندلسية العظيمة[2].

ومن الأنهار الشرقية التي تلي الوادي الأبيض جنوبًا، نهر شُقر، ويسميه الإسبان بما يشبه هذا فيقولون: « خوكر » Jucar. وعلى هذا النهر تقع جزيرة شُقْر التي تتصل اتصالًا كبيرًا بالأدب الأندلسي لجمال طبيعتها، وكونها مصدر إلهام لعدد من الشعراء.

وهناك بعد ذلك جنوبي هذه الأنهر يجري نهر شَقُّورة، الذي يقال له في الإسبانية « سجورا » sigura. وهو يخترق مدينة مَرْسِيَة ويروي قسمًا كبيرًا من إقليم شرقي الأندلس.

وهناك بطبيعة الحال أنهر أصغر من تلك التي ذكرت في هذا الحديث، كما أن هناك عيونًا وآبارًا كثيرة. وعلى تلك الأنهار والنهيرات والعيون والآبار والأمطار تعتمد الحياة الزراعية في الأندلس. غير ان الاعتماد أساسًا على الأمطار في منطقة الهضبة الوسطى.

وهكذا نرى أن شبه جزيرة الأندلس، ليست كما يتصور كثيرون جنة ليس فيها إلا السهول المنبسطة والحقول الخصبة والحدائق الغناء، فالحق أن هذا

---

(١) يقول لها الإسبان Zaragoza.

(٢) يقال لها بالإسبانية: Valencia.

تصور شعري حمل عليه ما جاء في إنتاج شعراء الطبيعة الأندلسيين، ممن عاشوا في السهول الأندلسية الممرعة، ثم صوروا لنا طبيعة تلك الأقاليم فقط فظننا أن الأندلس كلها كما وصف هؤلاء الشعراء، وأخذنا صورة للبلاد كلها مما صور به الشعراء بعض أقاليمها. فالواقع أن بلاد الأندلس سهول وهضاب وجبال وأودية، فيها الخصب السعيد، وفيها الجدب الشقي، فيها بقاع تستحم بمياه الأنهار، وفيها أخرى تتعطش إلى غيث السماء.

ولكن الشيء الذي لا شك فيه، هو أن أخصب بقاع شبة الجزيرة وأحسنها مناخًا، تلك الأقاليم التي فضل المسلمون الحياة فيها حتى لم يكن مقامهم بغيرها إلا قليلًا أو لضرورة. وتلك الأقاليم، هي السهول الجنوبية والشرقية والغربية، التي تَغْنَى بالخصوبة الوفيرة وتروى من الأنهار العديدة، وتسعد بالمناخ المعتدل. أما الأقاليم التي تقع ضمن الهضبة الكبرى، فهي أقل الأقاليم حظًا من كرم الطبيعة وحسن المناخ. ويكفي أن نعلم ان تلك الأقاليم تتألف أكثر ما تتألف من أرض قليلة الخصوبة، وكثير منها غير صالح للزراعة، والصالح فيها يروى غالبًا بمياه الأمطار التي تجود حينًا وتبخل أحايين. ثم إن المناخ في تلك الأقاليم أقرب إلى القارية منه إلى الاعتدال، فهو في الشتاء شديد البرد كثير العواصف متساقط الثلج، وهو في الصيف شديد الحرارة متوهج الهاجرة.

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة من إقليم إلى آخر، وذلك لسعة رقعة البلاد وامتدادها، ولاتصالها من الشمال بأوروبا ومن الجنوب بإفريقيا، هذا بالإضافة إلى التفاوت الشاسع في تضاريسها، من جبال إلى سهول، ومن هضاب تعفرها الرمال الى شواطىء تغسلها البحار. وقد جعل كل ذلك من شبه الجزيرة الأندلسية، موطنًا لشتى المناخات ومختلف الأجواء، فبينما تغلب طبيعة أوربا في الشمال، تغلب طبيعة إفريقيا في الجنوب، وبينما يماثل الإنسان غيره من سكان أوربا في جهة، يشابه مجاوريه من سكان شمال

إفريقيا في جهة أخرى، وليس ذلك بغريب بعد أن عرفنا آن لا فاصل بين الشماليين ومجاوريهم الفرنسيين إلا جبال البرانس، وأنه لا حاجز بين الجنوبيين ومجاوريهم المغاربة إلا مضيق جبل طارق.

وكما تختلف الأجواء والطبائع في بلاد الأندلس، تختلف كذلك الحاصلات حتى يمكن أن يقال: إن أكثر الحاصلات التي تعرف في مناطق العالم المختلفة تجنى في الأندلس؛ لأن هناك من الأجواء ما يصلح لكل المزروعات تقريبًا. على أن أكثر حاصلات البلاد، هي تلك التي تجود في حوض البحر الأبيض المتوسط، فهناك يكثر القمح والشعير والأرز والبقول، وتجود الفاكهة وخاصة الموالح والكروم، وهناك أيضًا يكثر الزيتون، الذي عليه وعلى الموالح، والارز والكروم يعتمد الدخل القومي أعظم اعتماد.

وبلاد الأندلس بعد هذا غنية بالمناجم والمراعي والمرافىء البحرية، وهي بهذا كله تمثل - كما يقول كثيرون - قطاعًا كاملًا من العالم بطبائعه المختلفة وأجوائه المتعددة وحاصلاته المتباينة.

٣ - إسبانيا قبل المسلمين:

يُعتبر الإيبريون من أقدم من عرف من سكان إسبانيا، وقد اختلط بهم قديمًا من يسمون بالسّلتيين، فنشأ من هذا الاختلاط الشعب المسمى بالسلتي الإيبري؛ وذاك الشعب هو أصل الشعب الإسباني الذي أسهمت في تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ.

فقد اهتدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبرية، فنزلوا بها وتبادلوا التجارة مع أهلها، وأغرتهم خيراتها بالإقامة في بعض أقاليمها، وخاصة في الجنوب حيث أسسوا مدنًا لا يزال بعضها قائمًا إلى اليوم، مثل مدينة قادس

Gadiz ، وكان ذلك في القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

ثم وفد الإغريق على شبه الجزيرة، حول القرن السابع قبل الميلاد، وأقاموا كذلك في بعض جهاتها، وخاصة الجهات الشرقية، وأنشأوا أيضًا من المدن ما بقي بعضه حتى اليوم، كمدينة برشلونة.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد: نزل القرطاجنيون شبه جزيرة إيبريا وأسسوا بها مدنًا جديدة، مثل مدينة قرطاجنة التي سموها باسم دولتهم في شمال أفريقيا.

ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، حين تغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها. ومنذ ذلك الحين أصبحت شبه الجزيرة الايبرية ولاية رومانية. وقد صبغ الحكم الروماني تلك البلاد بصبغته التي ظلت أهم خصائصها حتى الفتح الإسلامي، رغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المسلمون. وأهم آثار الحكم الروماني التي ظلت حتى الفتح الإسلامي: اللغة الرومانية والدين المسيحي.

وفي أوائل القرن الخامس الميلادي، استقر الوندلس في جنوب شبه الجزيرة، حين أغارت تلك القبائل الجرمانية على ممتلكات الدولة الرومانية، وقد ظل هؤلاء حينًا في جنوب شبه الجزيرة، ثم أجلاهم عنها القوط وهؤلاء هم كسابقيهم، بعض تلك القبائل الجرمانية الهمجية التي كانت تغير على ممتلكات الرومان في ذلك الحين. وقد سيطر القوط على شبه الجزيرة تقريبًا، وأسسوا ملكًا كبيرًا عاصمته طليطلة، وظل ملكهم حتى كان الفتح الإسلامي سنة ٧١١م.

وكان هؤلاء القوط قد اعتنقوا المسيحية التي سبقتهم إلى إسبانيا منذ العهد الروماني. كذلك كانت اللغة السائدة في العهد القوطي هي اللغة الرومانية التي سبقت القوط الى السيطرة على شبه الجزيرة ودخلتها بدخول الرومان.

وقد سار القوط أول الأمر سيرة حسنة في إسبانيا، ثم ما لبثوا أن أساءوا

الحكم، فأساءوا إلى أنفسهم وإلى الإسبان جميعًا، ذلك أنهم أخلدوا إلى الملذات وتركوا الشعب نهبًا للآلام، فاستأثر الأشراف ورجال الدين بالحرية والسعادة، وآثروا العاملين بالعبودية والشقاء. وقد أدى كل ذلك إلى كراهية الشعب للحكام ورجال الدين، وتربصهم بهؤلاء وهؤلاء.

وقد ضاعف الحالة سوءًا، كثرة المنازعات التي كانت تحدث بين زعماء القوط على العرش، فقد كانت تلك المنازعات بمثابة الوقود يلقى على نار الثورة، فتشب حينًا بعد حين، وكانت هذه الخلافات بين الشعب وحكامه من جهة، وبين الحكام أنفسهم من جهة أخرى، تهز العرش القوطي هزًا عنيفًا، بل كانت ترقصه على حافة بركان. فهناك الفشل السياسي والضعف الحربي والتفكك الاجتماعي والظلم الطبقي، وقد تجمعت تلك العوامل في أواخر العهد القوطي كأنها قطع الليل المظلم، الذي تتطلع فيه العيون متلهفة إلى فجر جديد.

٤ ـ المسلمون في إسبانيا:

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على شمال إفريقيا، واستقرت بتلك العدوة التي لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق. وكان ذلك بعد ضحايا عديدين من الجنود والقواد المسلمين، وبعد جهاد طويل قد استمر منذ عهد عمر رضي الله عنه، إلى عهد الوليد بن عبد الملك. وكان قائده على المغرب موسى بن نصير، صاحب فضل كبير في تثبيت قدم الإسلام في شمال إفريقيا، ونشر رايته حتى المحيط الأطلسي.

ولا شك أن ذلك القائد الظافر كان يتطلع في شوق إلى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق. ولكنه فيما يبدو كان يخشى أن يغامر

بجيش المسلمين في تلك البلاد، لأن مصيره فيها كان محفوفًا بأخطار، أقلها ذلك المجهول الذي لا يلتمع في أفقه نجم.

ولكن خشية موسى سرعان ما عادت أكثر من الأمن، وأصبح تردده في فتح تلك البلاد، تصميمًا على اقتحامها بجيوش المسلمين. كان ذلك حينما تقدم إليه يوليان Julian حاكم سبتة، وعرض عليه تسليم سبتة أولًا ثم المساعدة في فتح إسبانيا ثانيًا. وكانت سبتة - على الأرجح - ولاية إفريقية تابعة للقوط، يحكمها من قبلهم حاكم، وكانت إلى ذلك حصنًا منيعًا من الحصون الإفريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد، كما كانت ثغرًا له قيمته على مضيق جبل طارق، يمكن أن يستخدم في العبور إلى جنوب إسبانيا. أما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخي على موسى، فسؤال للمؤرخين في الإجابة عليه أقوال عديدة[1]، ترجع في جملتها إلى وجود ضغائن بين يوليان هذا وبين ملك القوط حينئذ، المسمى رذريق Rodrigo. ومهما يكن من أمر فقد رحب موسى بهذا العرض، وأرسل أحد محاربيه واسمه طريف، على رأس قوة صغيرة[2] عبرت المضيق على سفن قدمها حاكم سبتة، ونزلت في جنوب شبه الجزيرة، بمكان لا يزال يحمل اسم القائد المسلم إلى اليوم حيث يسمى جزيرة طريف Terifa ثم عادت تلك السرية إلى شمال أفريقيا بما طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد. وكان عبور هذه السرية إلى جنوب إسبانيا سنة ٩١هـ - ٧١٠م.

وفي السنة التالية (٩٢هـ - ٧١١م) أرسل موسى جيشًا كبيرًا[3] بقيادة

---

(١) من تلك الأقوال: أن ابنة يوليان كانت تربى كسائر بنات الأمراء في قصر الملك فاستحسنها واعتدى عليها. ومن الأقوال أيضًا: أن يوليان كان مواليًا للأسرة المالكة السابقة التي انتزع لوذريق الملك منها وهي أسرة غيطشة Vitiza.

(٢) كانت هذه القوة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ فارس. وقد عبرت على أربع سفن.

(٣) كان عدد هذا الجيش ٧٠٠٠ وأكثره من القبائل الأفريقية. ثم زيد هذا الجيش إلى ١٢,٠٠٠ قبل أن يخوض طارق المعركة الفاصلة مع جيش القوط.

طارق بن زياد لفتح هذه البلاد. وقد عبر جيش طارق هذا المضيق الذي سمي باسمه فيما بعد. ونزل من جنوب شبه الجزيرة في هذا المكان الذي سمي كذلك بجبل طارق. وكان عبور هذا الجيش على سفن لحاكم سبتة، كما كان يرافقه أدلاء من قبل هذا الحاكم.

وقد هَزم طارق كل الحاميات التي تعرضت له بعد نزوله بالشاطىء الإسباني، ووصل نبأ طارق وجيشه إلى ملك القوط الذي كان في شمال شبه الجزيرة يخضع بعض الثائرين، فأسرع بالعودة إلى طليطلة العاصمة، واستعد بجيش كبير للقاء الفاتح المسلم. ولم ينتظر حتى تدخل عليه جيوش المسلمين عاصمته طليطلة، بل اتجه بجيشه جنوبًا للقاء طارق وجيشه.

وفي سهول شريش قرب مدينة قادس، وعند وادي لكَّة[1] Guadalete التقى الجيشان في معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين وتشتت جيش القوط، رغم تفوقه في العُدد والعَدد على جيش المسلمين[2]. وبعد هذه المعركة الرئيسية الحاسمة، أرسل طارق بعض محاربيه لفتح قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها من المدن والأقاليم، ثم اتجه بأكثر الجيش الى العاصمة القوطية طليطلة، فدخلها وأسس دولة المسلمين في الأندلس على أنقاض دولة القوط.

وفي العـام التالي (٩٣هـ - ٧١٢م) عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش جديد، ونزل في مكان آخر هو الذي يسمى الآن بـالجزيـرة الخضراء Al geciras. ثم سار في طريق آخر غير الذي سلكه طارق، وأخضع في طريقه عددًا من المدن والأقاليم التي لم تكن قد خضعت بعد، مِثل شذونة وإشبيلية

---

(١) يسميه المؤرخ الأندلسي ابن القوطية: بوادي بكة، وعلى أية حال فهو نهر يصب في خليج قادس. ويقول دوزي: إنه النهر الذي يسمى الآن Rio salado. على أن ليفي بروفنسال يرى ان المعركة دارت على ضفة البحيرة المسماة Janda التي تتصل بنهر Barbate.

(٢) قيل إن عدد جيش لذريق كان ١٠٠,٠٠ أما لذريق فقيل إنه قد قتل في المعركة، وقيل فر ببعض قواته فقتل في معركة أخرى.

وماردة(١)، وبعد ذلك وصل إلى طليطلة(٢).

ويقال: إن موسى عنف مولاه طارق بن زيادة ولامه كثيرًا على توغله في البلاد توغلًا كان من الممكن أن يجلب الشر على جيوش المسلمين، ويقال أيضًا: إنه لم يعنفه فحسب، وإنما قيده وضربه وكاد يقتله. وللمؤرخين في تصرف موسى إزاء طارق تفسيرات، بعضها يتهم موسى بالغيرة من طارق أو الحقد عليه. على أية حال فبعد هدوء تلك العاصفة بين القائدين العظيمين سارا بالجيوش الإسلامية مخضعين كثيرًا من أقاليم حوض نهر إبرُه، مثل إقليم سَرَقُسْطَة. ثم تقاسما إخضاع بعض الأقاليم الشمالية، مثل سوريا(٣) وليون وبعض حصون أستورياس وجِلِّيقِيَة(٤).

وفي غمرة الانتصار(٥) استُدعي موسى بن نصير إلى دمشق للقاء الخليفة على أن يكون في صحبته طارق، فأوقف موسى الزحف، وعاد الى الجنوب، وأصلح من شئون الأندلس ما استطاع، وولى ابنه عبد العزيز على البلاد، وترك شبه الجزيرة واتجه مع طارق إلى دمشق سنة ٩٥هـ - ٧١٣م.

وهكذا دخل المسلمون شبه الجزيرة الايبيرية، وكانت لهم فيها دولة بل دول. ومرت عليهم أحداث تاريخ طويل، وتتابعت على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكمين. وليس هنا محل سرد شيء من ذلك أو تفصيل القول فيه. وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى أن هذا التاريخ الطويل الذي قارب ثمانية القرون، يقسم عادة إلى عصور هي:

---

(١) Merida.

(٢) كان الجيش الذي عبر به موسى يتألف في أغلبيته من العرب. وكان ١٨,٠٠٠ من الجنود.

(٣) اسم إقليم في إسبانيا، وهم يسمون سوريا التي هي من الأمة العربية (سيريا) Siria.

(٤) Galicia.

(٥) لم يتأكد ليفي بروفنسال من أن موسى عبر جبال البرانس إلى فرنسا. ولكن الأستاذ محمد عبدالله عنان يذكر أن موسى عبرها ووصل إلى نربونة أو إلى ليون في فرنسا.

أولًا: عصر الولاة، وهو ذلك العصر الذي يبدأ بالفتح الاسلامي سنة ٩٢هـ - ٧١٢م وينتهي بقيام دولة بني أمية في الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م.

ويسمى هذا العصر عصر الولاة، لكون الاندلس كانت تحكم فيه بواسطة وال يعينه خليفة دمشق وأحيانًا يعينه حاكم شمال أفريقيا.

ثانيًا: العصر الأموي، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس، تلك الدولة التي تبلغ ذروة مجدها في عهد عبد الرحمن الناصر الذي يجعل منها خلافة عظيمة. وينتهي هذا العصر بانتهاء ملك بني أمية هناك، بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين، واختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهوري سنة ٤٢٢هـ - ١٠٣١م.

ثالثًا: عصر ملوك الطوائف، ويبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة، تقسمت الأندلس معها إلى طوائف، وعلى كل طائفة مُليك. وينتهي هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ - ١٠٩١م.

رابعًا: عسر المرابطين، ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الأفريقية على الأندلس، وينتهي بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين في حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١هـ - ١١٤٦م.

خامسًا: عصر الموحدين، ويبدأ بحكم هؤلاء الأفريقيين للأندلس، وينتهي بسقوط دولتهم، وانتزاع المسيحيين الأسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التي كانت في أيدي المسلمين، وحصر الدولة الاسلامية الأندلسية في جزء جنوبي صغير هو مملكة غرناطة، وذلك نحو سنة ٦٦٨هـ - ١٢٦٩م.

سادسًا: العصر الغرناطي، ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر، وينتهي بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان، سنة ٨٩٨هـ - ١٤٩٢م.

٥ ـ المجتمع الأندلسي:

(أ) العناصر البشرية في الأندلس:

كان المجتمع الأندلسي مكونًا من عناصر شتى، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون، وفيه الوافدون من عرب وبربر، ثم فيه الموالي المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة، والمماليك المجلوبون من بلاد غربية عديدة.

أما أهل البلاد الأصليون، فهم المسمون بعجم الأندلس، وكانوا في أكثريتهم الغالبة من الأسبان.

وأما الوافدون، فكان منهم العرب الآتون من المشرق، وقد سمي أوائلهم ـ وهم من أتوا مع موسى بن نصير ـ باسم البلديين، كما سمي من جاءوا بعدهم باسم الشاميين.

كذلك كان من الوافدين، البربر الآتون من شمال إفريقيا، والذين كان أوائلهم يؤلفون معظم جيش طارق بن زياد.

وأما الموالي، فقد أتوا في ركاب العرب منذ عبروا إلى الأندلس، إذ كانوا مرتبطين بهم تابعين لهم، حتى لقد نسيت بمرور الزمن أصول كثير منهم، وعدوا فعلًا من القبائل التي تربطهم بها روابط الولاء.

وأما المماليك فكانوا يجلبون من عدة بقاع أوربية، وخاصة من المناطق السلاڤية، وكان تجار الرقيق من الجرمان وأشباههم يسبون هؤلاء السلاڤيين صغارًا ثم يبيعونهم في أسواق إسبانيا. وقد عرف هذا النوع من الرقيق في الأندلس باسم الصقالبة، ثم غلب على كل الرقيق حتى ولو لم يكن سلاڤيًا.

وقد بدأ هؤلاء الصقالبة يظهرون في المجتمع الأندلسي كعنصر، منذ أيام عبد الرحمن الداخل.

وليس معنى ما تقدم أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعًا مهلهلًا بسبب

اختلاف عناصره البشرية، فالحق أنه رغم تعدد العناصر بين سكان الأندلس، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض في أغلب الأحيان، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز. فقد كانت هناك دائمًا البيئة المشتركة والثقافة المشتركة، وقد كانت هناك غالبًا الحكومة الموحدة والسياسة الموحدة، ثم كانت هناك بعد ذلك الحضارة الأندلسية الرائعة، التي تصبغ جميع العناصر بصبغتها الواضحة؛ تلك الصبغة التي لا يكاد يفترق فيها بربري الأصل عن عربي الدم، بل لا يكاد يميز معها إسباني الجدود من عربي الآباء.

على ان أهم ما جعل الوحدة البشرية في المجتمع الأندلسي ذات قوة وتفوّق ما كان من تعدُّد الأصول، كون العنصر البشري الذي يمثل أكثر سكان الأندلس، والذي يعتبر أبرز عناصر المجتمع؛ هو العنصر العربي الممتزج على مر السنين بالعنصر الإسباني، والمؤلف من هذا الامتزاج مَنْ هم أجدر سكان إسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين.

فقد وفد العرب على إسبانيا في موجات هائلة، وانتشروا في أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلًا، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية، العدنانية منها والقحطانية.

وكان هؤلاء العرب قد وفد أكثرهم على إسبانيا في شكل جنود لا في شكل أسر، أي أنهم لم يأتوا في أغلب الأحيان بنسائهم وزوجاتهم، حتى يمكنهم الانعزال بشريًا عن سكان البلاد الأصليين، وإنما كانوا بحالتهم التي جاءوا عليها مضطرين إلى الاتصال الأسري بسكان شبه الجزيرة، حتى يكوّنوا بالزواج من نساء البلاد أسرهم الجديدة التي ستربطهم بالوطن الجديد وتبقي نوعهم به.

وقد كان هؤلاء العرب الوافدون في موجات، من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالإسبان عن طريق المصاهرة، أمرًا كافيًا لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء أبرز عناصر المجتمع الأندلسي وأهم مكوناته البشرية.

فمثلًا كان جيش موسى بن نصير مؤلفًا ـ فيما تقول بعض الروايات ـ من ثمانية عشر ألفًا جلهم من العرب وكان جنود الشام الوافدون مع بَلج بن بشر في عهد الولاة، عشرة آلاف، منهم ثمانية آلاف من بيوت العرب، وألفان من الموالي. وكان جنود أبي الخطار الكلبي الوافدون في عهد الولاة أيضًا، من العرب ولا بد أن يكون عددهم كبيرًا حتى يصلحوا للمهمة التي قدموا من أجلها، وهي فض النزاع بين البلديين والشاميين، وإقرار الأمن والنظام في الأندلس. كذلك كانت موجة الأمويين وأنصارهم ممن أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية، كما كانت ذات عدد لا يتصور إلا كبيرًا؛ نظرًا لما هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه ببني أمية الوافدين عليهم، وبكل اللائذين بهم من عرب المشرق عمومًا.

وهكذا نرى أن المجتمع الأندلسي كان متعدد العناصر والأصول، ولكنه كان مع ذلك متحد الطابع في جملته، وخاصة حين برز أهم عناصره البشرية، وهو العنصر الذي تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية والذي يؤلف الأندلسيين الجديرين بهذه التسمية.

(ب) أصل الأندلسيين:

على أن الباحثين يختلفون في أصل الأندلسيين، ويتعارضون أشد التعارض في اختيار الجنس البشري الذي يندرجون تحته. فبعضهم ـ والشرقيون منهم بصفة خاصة ـ يرون ان هؤلاء الأندلسيين عرب، قد رحلوا من مواطن العرب في المشرق، وعاشوا في الأندلس محافظين على عروبتهم، متمسكين بأنسابهم وسلاسل قبائلهم. والبعض الآخر، والمستشرقون الإسبان بصفة خاصة، يرون ان الأندلسيين ليسوا إلا إسبانًا مسلمين، فهم ليسوا عربًا

وليسوا شرقيين، وإنما هم إسبان وغربيون، دينهم الإسلام ولغتهم العربية.

والسبب في تمسك الباحثين الشرقيين بعروبة الأندلسيين كالسبب في تمسك الباحثين الغربيين بإسبانيَّة هؤلاء الأندلسيين، فكلا الفريقين يعتز بهم ويحاول أن يكسب حضارتهم إلى حضارته، ويضيف علمهم إلى علمه، ويعد أدبهم من تراث أدبه. ربما كانت وجهة نظر الباحثين الشرقيين أقدم وجهتي النظر، فالمسلمون منذ أقدم عصور الأندلس يعتبرون الأندلسيين عربًا منهم؛ تراثهم تراثهم وأدبهم أدبهم وحضارتهم حضارتهم، وكل الذي كانوا يخصون به الأندلسيين أن يعدوهم أحيانًا أهل المغرب، على اعتبار ان المغرب الإسلامي يشمل شمال افريقيا والأندلس ويقابل المشرق الذي يشمل الحجاز والشام والعراق ومصر.

فكرة الشرقيين قديمًا وحديثًا في اعتبار الأندلسيين عربًا، تقوم على هذا التقليد العربي الذي ينسب الولد إلى أبيه؛ فما دام آباء الأندلسيين كانوا عربًا في الأصل، فالأبناء والأحفاد وكل الأجيال عرب كذلك، ينتمون كآبائهم إلى عدنان وقحطان.

أما فكرة الغربيين وخاصة الإسبان، في اعتبار الأندلسيين إسبانًا مسلمين، فقد نشأت أخيرًا وبدأ الاتجاه إليها في القرن الماضي تقريبًا حينما انحسرت موجة الكراهية التي كانت تغمر قلوب الأوربيين وخاصة الإسبان، ضد مسلمي الأندلس، فقد كانوا قديمًا يعتبرونهم غزاة وفاتحين ومحتلين، ومن هنا جاءت محاربتهم ومطاردتهم وإخراجهم.

ثم ظهر بعض الباحثين المنصفين، الذين أشادوا بفضل المسلمين على أوربا كلها لا على إسبانيا وحدها، وبينوا ما كان لهؤلاء المسلمين من فضل على العلم والأدب والحضارة الأوربية جميعًا؛ وانتقدوا لذلك تلك المعاملة القاسية التي لقيها هؤلاء المسلمون على أيدي المسيحيين. وأخذت الأبحاث تتابع في بيان ما

لمسلمي إسبانيا من التأثير في الفلسفات والآداب والفنون الأوربية على وجه العموم.

وأخيرًا تبنى مستشرقو الإسبان وعلى رأسهم العلامة «خوليان ريبرا» Julian Ribera فكرة الأصل الإسباني لمسلمي إسبانيا. ويعتبر «خوليان ريبرا» أول من حاول إثبات هذه النظرية والتدليل عليها من الوجهة العلمية؛ فهو يرى أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح إنما دخلوا - كما هو معروف - على هيئة جنود، ولم ينتقلوا إليها كأسر. وكان لا بد لهؤلاء المحاربين من أن يكوّنوا البيوت وينجبوا النسل، وكانت الإسبانيات الجانب الآخر في تكوين هذه الأسر وإنجاب ذلك النسل. وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربي ولي أمر الأندلس بعد الفتح، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير، كما أقبل عليه غيره من العرب حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالإسبانيات، حتى لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية في الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات. وإذا كان الولد - في الحقيقة - ابنًا لأبيه كما هو ابن لأمه، وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه، إذا كان ذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الإسباني حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الإسباني الذي يكاد يكون خالصًا.

ويجري الأستاذ «ريبرا» تجربة على الأسرة الأموية التي حكمت في الأندلس فيقول ما خلاصته: إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربي، لأنه كان من أم غير عربية، وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع دم عربي، لأن أمه كانت أيضًا غير عربية. وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من أمير إلى آخر، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي؛ فالحكم بن هشام ليس له من الدم العربي إلا الثمن، وعبد الرحمن الأوسط، ليس له إلا جزء من ستة عشر جزءًا، والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين

جزءًا ، والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين جزءًا ، وكذلك أخوه عبد الله. ثم يأتي بعدهما محمد بن عبد الله (وهو لم يحكم) وفي دمائه جزء من مائة وثمانية وعشرين جزءًا. ثم يأتي بعد ذلك عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، وليس له من الدم العربي إلا جزء من مائتين وستة وخمسين جزءًا. أما ابنه الحكم الثاني، فليس له تبعًا لذلك إلا جزء من خمسمائة واثني عشر جزءًا. وأخيرًا يأتي هشام الثاني فلا يكون له من الدم العربي إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءًا.

ولسنا ننكر الدافع الكريم الذي حمل الأستاذ «ريبرا» على محاولة إثبات أن الأندلسيين أسبان مسلمون؛ فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلى التراث الإسباني، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبرا فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التي أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربي في الدم الإسباني؛ لأننا لا نتصور أولًا أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق، ولأننا لا نتصور ثانيًا أن الوفود على الأندلس كان دائمًا من نصيب الرجال دون النساء، ولأننا لا نتصور ثالثًا كل عربي في الأندلس كان ينجب دائمًا من إسبانية جديدة وإن كان قد تصادف ذلك في الأسرة الأموية. فالمعقول أن توجد مولدات من أب عربي وأم إسبانية، وأن الزيجات الغالبة كانت تتم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربي على الأقل. وإلا فكيف يتصور بناء على المثال الذي ضربه الأستاذ «ريبرا» أن كل زيجة من عربي وأسبانية تنتج رجالًا فقط يضطرون إلى الزواج من جديد بإسبانيات خالصات؟ أو أن الزيجات المختلطة كانت تنتج بنات وبنين، لكن البنات لا يتزوجن بل يكون الزواج دائمًا من إسبانيات جديدات؟!

لهذا كله نفضل الأخذ بأصل نظرية الأستاذ « ريبرا » دون المضي معها إلى آخر الشوط، ودون التسليم بما يريد لها من نتائج. بمعنى أننا نسلم أن العرب الداخلين قد كانوا يتزوجون من إسبانيات، وأن هذه الزيجات، انتجت فعلًا جيلًا من الأندلسيين تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية امتزاجًا تتساوى فيه العناصر العربية والإسبانية تقريبًا، ثم إن الأمر ظل على هذا غالبًا، نظرًا لكون هذا الجيل الأول من المولودين ستحدث بين بنيه وبناته زيجات يحافظ فيها على نسبة الدم العربي، ويظل الأمر على ذلك ما تتابعت الأجيال.

وإذن فالأندلسيون من حيث الأصل شعب فيه دماء عربية وفيه كذلك دماء إسبانية، وفيه تبعًا لذلك كله موروثات من العرب والإسبان جميعًا.

بقي أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنسًا ومختلطين دماءً، فهم عرب في قوميتهم، لأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم، فإذا كانت لهم بعض خصائص الإسبان في الشكل أو في الطبع، فإن لهم جل خصائص العرب فيما وراء الشكل والطبع. ومن هنا كان تراثهم تراثًا عربيًا يأخذ مكانه بين تراث العرب على مر العصور. أما ما قد يكون لهم من خصائص نفسية أو عقلية تبعًا لما ورثوه من أمهاتهم الإسبانيات، فشيء نحترمه في الدرس الأدبي ونعنى به وبإبرازه ما أمكن. وليس معنى ذلك أننا نقول بإسبانيتهم كما يقول الأستاذ « ريبرا » ومن جاراه من المستشرقين، وإن كنا نشكر لهم إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيين، ومحاولة إلصاقهم بهم وضم تراثهم إلى ما للإسبان من تراث.

(ج) الديانات في الأندلس:

انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان شبه الجزيرة. ولعل من أهم أسباب ذلك، أن الأرقاء الذين كانوا يرزحون تحت نير الأشراف في العهد القوطي، قد وجدوا الإسلام طريقهم إلى الحرية، فأقبلوا عليه ليفك أغلالهم ويعبد كرامتهم. على أن الأرقاء لم يكونوا وحدهم الذين اعتنقوا الإسلام في سرعة من بين أبناء شبه الجزيرة، فقد شاركهم في هذا الإقبال على الإسلام كثير من الأحرار، أعجب بعضهم بالإسلام والمسلمين، وأحب بعضهم الآخر أن يحافظ على الأرض التي تحت يده، أو أن يخلص نفسه من عبء الجزية، أو أن يرفع مكانته الاجتماعية بالانضمام إلى الممتازين أصحاب الدين الجديد وأولي الأمر أيضاً.

ولذا لم يلبث الإسلام أن نحّى النصرانية عن عرشها في شبه الجزيرة، وصارت الغالبية العظمى من أهل البلاد مسلمين، وصاروا يسمون بالمسالمة كما صار أبناؤهم يسمون بالمولدين. وإنما قلنا: الغالبية العظمى؛ لأن المسلمين لم يكونوا يعيشون وحدهم في هذا المجتمع الكبير؛ بل كانت تشاركهم أقلية من المسيحيين، وكانت تلك الأقلية كبيرة إن صح هذا التعبير. وقد ترك المسلمون لهؤلاء المسيحيين حريتهم في البقاء على دينهم، وفي مزاولة شعائرهم، فتجاورت المساجد والكنائس في سماحة، واختلطت نداءات المآذن بدقات الأجراس في محبة، وتعايش المسلمون والمسيحيون في الأندلس على أخوة.

وقد بهرت الحضارة الإسلامية هؤلاء المسيحيين الذين كانوا يعايشون

المسلمين في الأندلس، فأخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشيء الكثير، فقلدوا المسلمين في لغتهم، وتعلموا ثقافتهم، بل لبسوا ملابسهم وعاشوا إلى حد كبير على نمط حضارتهم، ولذلك سموا بالمستعربين.

ولم يكن هؤلاء المستعربون هم وحدهم الذين يعايشون المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى، فقد كانت إلى جانبهم جاليات يهودية، وجدت من المسلمين كثيرًا من التسامح وحسن المعاملة، بعد أن وجدت في فتحهم لإسبانيا منقذًا من الجور، الذي كان اليهود يرزحون تحت نيره أيام القوط.

وقد بلغ تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود الذين يعيشون في ظلال الحكومة الأندلسية، درجة تحمل على الإعجاب، فقد كان الأكفاء منهم موضع إجلال الحكام ومحل ثقة الأمراء والخلفاء، كما كانت لهم في أغلب الأحيان مناصبهم الكبيرة، التي ترشحهم لها كفاءتهم، دون عائق من دينهم المخالف لدين الدولة. ومن أمثلة من تمتعوا بالحياة والمنصب من المسيحيين، «أرطباس» الذي كان محل ثقة بعض ولاة الأندلس، حتى كانوا يستشيرونه في أمور البلاد، والذي كان أيضًا موضع تكريم الأمير عبد الرحمن الداخل، حتى رد عليه عشرين ضيعة وولاه القماسة، فكان أول قُومس بالأندلس. ومن أمثلة هؤلاء المسيحيين كذلك «حيزون» الذي كان قاضيًا للنصارى بقرطبة في أيام الحكم المستنصر، والذي كانت تسند إليه مهمة الترجمة بين الخليفة وكبار الإسبان في بعض الأحيان.

ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من اليهود، «حسداي بن شبروط» الطبيب، الذي كان من كبار رجال الخليفة الناصر، كما كان من ذوي النفوذ الواضح لدى المستنصر. ومنهم كذلك «صمويل بن النَّغرِلَّه» الأديب، الذي كان وزيرًا لباديس ملك غرناطة في عهد الطوائف.

وإذا استثنينا بعض الحوادث القليلة، يمكن أن يقال: إن تلك الأقليات غير المسلمة لم تضطهد من المسلمين إلا حين سيطر الافريقيون من مرابطين وموحدين على الأندلس.

(د) اللغات في الأندلس:

وكما انتشر الإسلام بسرعة فائقة في شبه الجزيرة، انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد.

وقد كان لهؤلاء العرب، الوافدين على الأندلس في شكل موجات كبيرة أثر كبير في نشر اللغة العربية في شبه الجزيرة. ولا شك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم، نظرًا لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق، ولسان الممتازين ذوي السلطان. ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية في عصر مبكر بين المسيحيين أنفسهم، من تلك الشكوى التي أطلقها أحد قساوستهم، واسمه «الفرو» القرطبي حيث يقول: «إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبًا عربيًا جيلًا صحيحًا. وأين تجد الآن واحدًا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين، وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة!! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالًا طائلة في جمع كتبها،

ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب. فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم!! لقد أنسي النصارى حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منهم واحدًا يستطيع ان يكتب إلى صاحبه كتابًا سليمًا من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجد منهم عددًا عظيمًا يجيدونها في أسلوب منمق. بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنًا وجمالًا ».

وهكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها في شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية أيضًا. وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد، كما صار الإسلام دينها الرسمي كذلك.

وقد صارت فصحى الأندلس بمرور الزمن وبحكم البيئة الجديدة، وبسبب احتكاك عناصرها المختلفة، ذات خصائص محلية تميزها بعض التميز عن فصحى الأقاليم العربية الأخرى.

وقد كان من هذه الخصائص ما يتصل بالناحية الصوتية، كما كان منها ما يتصل باستعمال الألفاظ. فمما يتصل بالناحية الصوتية، نطق الأندلسيين للقاف قريبة من الكاف وغلبة الإمالة عليهم. ومما يتعلق باستعمال الألفاظ، اشتقاقهم لكثير من الكلمات، واقتراضهم لأخرى، ثم تخصيصهم لأسماء هي في الأصل لمسميات عامة، وتعميمهم لأخرى هي في حقيقتها لمدلولات خاصة. وربما كان هذا الجانب المتصل باستعمال الألفاظ هو أبرز الجوانب التي تميز عربية الأندلس بعض التمييز. فقد كانت لهم ألفاظ خاصة كثيرة، منها ما يختص بالإدارة وشئون الحكم، ومنها ما يتعلق بالزراعة وري الأرض، ومنها ما يرتبط بالبناء ووسائل العمران، ومنها ما يتصل بالزي وأدوات الزينة، وكلها ألفاظ خاصة بالأندلسيين تقريبًا، لا يكاد يستعملها غيرهم على النحو الذي عرفت عليه عندهم.

(هـ) الشخصية الأندلسية:

عُرف الأندلسيون بشخصية متميزة، أسهم في تكوينها إقليمهم وأصلهم وموضع بلادهم واقتصاد بيئتهم.

أما الإقليم، فقد عرفناه مختلف الطبيعة مقسم الجهات متباين الأصقاع، وقد سبب هذا اختلافًا في طبيعة السكان وتقسمًا في نزعاتهم وتباينًا في ميولهم منذ أقدم العصور، فهم بين جلالقة في الشمال الغربي، وقطلانيين في الشمال الشرقي، وبَشكُنس في الشمال، وقشتاليين في الوسط، وجُنوبيين فيما وراء الجبال السمراء.

ولما دخل المسلمون هذه البلاد كان لذلك الانقسام الجغرافي أثر في انقسام الأندلسيين في كثير من الأحايين، وقد ساعد على هذا اختلاف العناصر التي ينتمي إليها هؤلاء الأندلسيون من عرب الى بربر إلى إسبان.

وقد اتضح هذا الانقسام الذي سببته الطبيعة وغذاه الدم، حتى ليلاحظ في أغلب العصور الأندلسية المعروفة. فلم يخل عصر تقريبًا من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك، أو من حركة انفصال تحاولها هذه المنطقة أو تلك، أو من روح تمرد يبديها هؤلاء أو أولئك. وكان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش وقيادة الجند، إن لم يكن لإخضاع ثورة إقليم مسلم، فلرد هجمة جيش مسيحي، وإن لم يكن لسد بعض الثغور، فلتأمين بعض الحدود. وشواهد ذلك كثيرة في كتب تاريخ الأندلس.

وقد سبب ذلك نوعًا من القلق في المجتمع الأندلسي فكان في كثير من عهوده مجتمعًا قليل الاستقرار كثير الهزات.

ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التي عاشت في ظلال هذه الظروف، شخصية قد عانت نوعًا من القلق، جعلها تسعى إلى ما يُشعر بالأمن أو إلى ما يسكن على الأقل بعض هذه القلق. وربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصنوف من اللهو، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى وما أشبه ذلك مما كان يكلف به الأندلسيون.

على أن طبيعة بلاد الأندلس المقسمة المتباينة، إن سببت هذه الظاهرة السيئة في حياة المجتمع وفي نفوس أفراده، وأعني ظاهرة القلق، فقد عوضت تلك الطبيعة نفسها هذا النقص بظاهرة حسنة، كان لها أثر حميد في نفوس الناس وطباعهم ثم في فنونهم وآدابهم. ذلك أن الأندلسيين - كما ذكرنا - عاشوا أكثر ما عاشوا في تلك السهول الخصبة ذات الجمال الطبيعي الفاتن، وقد انعكس هذا على الناس خصوبة في خيالهم، وجمالًا في طباعهم، ورقة في أحاسيسهم، وأخرج منهم أناسًا يغلب عليهم طابع الفنانين المحبين للجمال مشاهدة وتمثلًا، ثم محاكاة وتصويرًا.

هذا ما كان من تأثير طبيعة الإقليم على الشخصية الأندلسية. أما ما كان من تأثير لأصل الأندلسيين ودمائهم وموروثاتهم، فقد عرفنا الأندلسيين مولدين من عرب وإسبان، ومن شرقيين وغربيين، وعرفنا الإسبان من قبل العرب مولدين بدورهم، قد اختلطت فيهم دماء إيبريين بدماء السلتيين ثم بدماء الفينيقيين والإغريق والقرطاجنيين والرومان والوندلس والقوط. فلما جاء العرب أخيرًا كان الأندلسيون آخر الأمر، خلاصة كل هذا التوليد ونتيجة كل ذلك الاتصال. وكان من نتائج ذلك أن أتى العنصر الأندلسي المولد ذا خصائص خلقية وخُلقية وعقلية ونفسية مميزة، جاءت كلها نتيجة لهذا التولد

من تلك العناصر التي اختلطت منذ أقدم العصور.

وكان أهم هذه الخصائص الخلقية: البياض المشرب بحمرة، وقد يمتزجان فيصيران سمرة في الجنوب. ثم القوام المعتدل الطول، والشعر الذي يغلب عليه السواد. كل ذلك مع الوسامة في الملامح والجمال في التكوين[1]

أما خصائص الأندلسيين من الناحية الخُلقية، فقد كانت المحافظة على الأصول الأخلاقية العامة، لكن مع ميل إلى التحرر والانطلاق، وحب للترخص وبغض للتزمت. ومن هنا كانوا يكلفون بالشراب الذي ساعدت عليه وفرة الكروم في بلادهم[2]. كما كانوا يهيمون بالموسيقى والغناء والرقص، وهي فنون ربما كانت أنسب شيء إلى ظروفهم النفسية، المطالبة بنوع من التنفيس.

وربما كان من خصائص الأندلسيين فيما يتعلق بالأخلاق - أو إن شئت فقل فيما يتصل بالعادات - كلفهم الشديد بالنظافة وحبهم العظيم للتأنق، وميلهم الواضح إلى الزينة، ثم انفرادهم بتقاليد في الزي تخالف ما كان عليه أهل الأقاليم الإسلامية الأخرى.

فهم مثلًا كانوا - في بعض عهودهم - يميلون إلى كشف الرأس وعدم لبس العمائم ونحوها مما كان يستعمل في الأقاليم الإسلامية حينئذ. كما كان المعممون بحكم مناصبهم كالفقهاء والقضاة يتخذون عمائم مغايرة تمامًا لما كان عليه المشارقة. كذلك كانت ملابس الأندلسيين تتخذ تفاصيل وهيئات خاصة

---

(١) راجع ما وصف به لسان الدين بن الخطيب أهل غرناطة في كتاب، الإحاطة (جـ١ ص ٣٤ - ٣٥)، وتلك الأوصاف تنطبق إلى حد ما على الأندلسيين لأن كثيرًا من سكان غرناطة قد جاءوها من باقي الأقاليم الأندلسية بعد أن أصبحت هذه المملكة كل ما بقي للمسلمين في الأندلس. على أن صورة الأندلسيين قد تدل عليها صورة الإسبان اليوم. وهي قريبة من الأوصاف التي ذكرناها.

(٢) بلغ من اقبالهم على الشراب أن الحكم المستنصر همّ بقطع الكروم واراقة الأشربة في أقاليم الأندلس.

بهم، لا يكاد يعرفها إخوانهم في المشرق، وكان من أهم ظواهر مغايرة الأندلسيين للمشارقة، في تقاليد الزي، اتخاذهم البياض لونًا للحداد[1].

أما خصائص الأندلسيين العقلية فأهمها: الذكاء الذي يميل إلى البساطة أكثر مما يميل إلى التعقيد، والتفكير الآخذ باليسر النافر من التفلسف. ومن هنا كانوا يبعدون كثيرًا عن التفريع والتعمق والتفلسف في أحوالهم العقيدية والثقافية والفنية أيضًا.

على أن من أهم خصائص الأندلسيين من الناحية النفسية، ذلك الإحساس الذي يكاد يكون مركب نقص عاناه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشارقة. فالمشارقة كانوا في مهد الثقافة الإسلامية، وبلادهم منبع اللغة العربية، وأقاليها مصدر الاتجاهات الأدبية، فكل شيء عقيدي أو عقلي أو فني يظهر أولًا في المشرق ويأخذ منه المشارقة ما يشاءون، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس. وذلك بسبب قرب المشارقة من المصدر، وبعد الأندلسيين عن هذا المصدر. ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشارقة، ويحاولون دائمًا أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم رغم بعدهم، وسبقهم رغم غربتهم. ومن هنا تراهم يتعصبون للدين تعصبًا شكليًا، حيث يتعلقون بمذهب مالك مثلًا تعلقًا يوشك أن يكون جمودًا، هذا على حين يترخصون في كثير من الأمور ترخصًا ربما كان مخالفة صريحة للدين من أساسه.

كذلك تراهم يتعصبون للغة تعصبًا ظاهريًا أيضًا، حيث يفتنون بعلم النحو مثلًا ويقتلونه درسًا وتأليفًا، ثم هم في الوقت نفسه يتخذون لحياتهم لغة أبعد ما تكون عن النحو، بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفسها.

كما تراهم يتعصبون للأدب التقليدي تعصبًا صوريًا. فيتلقفون مذاهبه

---

(١) ومما ورد مشيرًا إلى تلك العادة قول الشاعر أبي الحسن الحصري:

إذا كان البياض لباس حزن ... بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترني لبست بياض شيبي ... لأني قد حزنت على شبابي

ويهضمون اتجاهاته ويحفظون مؤلفاته، ويتسابقون إلى عمل مثلها أو أحسن منها. كل هذا مع اختراعهم أشكالًا جديدة من الأدب، تبعد كل البعد عن تلك الأشكال التقليدية التي يأخذون بها أنفسهم حين ينظرون إلى الأدب الوارد إليهم من المشرق.

وهكذا نرى ذلك الإحساس بالنقص أمام المشارقة كان يدفعهم إلى كا ما يلاحظ في حياتهم من تقليدية في الدين والثقافة والأدب، على حين يجذبهم شيء آخر إلى التحرر والانطلاق والتجديد، هذا الشيء هو بُعد بلادهم عن المشرق، واختلاط عناصرهم بعناصر أجنبية عن العرب، واتصالهم بمؤثرات تفتح أعينهم على كثير مما ليس في تقاليد الحياة الإسلامية العربية. ومن هنا يمكن أن نفسر هذين الجانبين من حياة الأندلسيين: الجانب التقليدي الصارم الذي جاء بدافع حب التفوق على المشارقة فيما سبق إليه المشارقة، ثم الجانب التحرري المنطلق الذي جاء من البيئة النائية والأصل المولد والمجتمع المختلط.

بقي أن نقول: إن اقتصاد بيئة الأندلس قد أسهم كذلك في تكوين شخصية الأندلسين فقد كانت الأندلس في أغلب عهودها بيئة غنية بالزراعة النامية التي أدخل المسلمون كثيرًا من طرقها وأدواتها ونباتاتها، والتي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم، في المزارع الإسبانية المحافظة على كثير من الأسماء العربية في المكان والنبات والآلة على السواء.

ولم تكن الزراعة هي مصدر الرخاء الوحيد، بل كانت هناك الصناعة أيضًا، وكانت تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد الأندلسي حينئذ، فقد وفد على الأندلس بعد الفتح كثير من الصناع المهرة الذين جاءوا من مختلف الأقاليم الإسلامية، وساعدتهم مواد الأندلس الأصلية على تأسيس صناعات وتنمية أخرى، حتى اشتهرت مدن كثيرة بصناعات لا يزال أثرها حتى اليوم، مثل قرطبة وشهرتها بالمنسوجات، وألمرية وشهرتها بمنتجات الفخار، ومثل فونقة التي عرفت بمصنوعات العاج، وشاطبة التي نبغت في صناعة الورق، وطليطلة

ذات التفوق في إنتاج السيوف وعدد الحرب.

هذا وقد كان للتجارة شأن كبير في المجتمع الأندلسي. ولا شك أن ثغور الأندلس العديدة ومنتجاتها الكثيرة مما شجع على رواج التجارة الأندلسية، فقد كانت إشبيلية تصدر القطن والزيت، كما كانت تستورد المنسوجات المصرية الشهيرة. وتستقبل كذلك قوافل الرقيق من آسيا وأوروبا، وكانت هذه التجارة غير الإنسانية رائجة في تلك العهود. كذلك كانت جيان ومالقه تصدران التين والسكر والمرمر، على حين تصدر بلاد أندلسية أخرى النحاس وأنواعًا مختلفة من المعادن.

وكانت أهم أسواق بضائع الأندلس في أفريقيا وآسيا وخاصة مصر والقسطنطينية. وكان البيزنطيون يتلقون منتجات الأندلس، ويصدرونها بدورهم إلى آسيا الوسطى والهند. وبالإضافة إلى كل هذا كانت هناك علاقات تجارية للأندلس مع باقي العالم الإسلامي وعواصمه كمكة وبغداد ودمشق.

وليس من شك في أن الرخاء الاقتصادي يسهم في تكوين الشخصية، لهذا كان الأندلسيون بهذا الرخاء الذي غلب على حياتهم، قادرين على مواجهة الحياة في ابتسام وتفاؤل وتفتح إلى حد كبير. كذلك كان هذا الرخاء من عوامل إقبالهم على الثقافة وتعلقهم بالأدب واقتنائهم للكتب. ومن هنا كان المجتمع الأندلسي مجتمعًا مثقفًا متأدبًا، بل كان أكثر مجتمعات أوربا ثقافة وأدبًا في تلك العصور، بل إن شئت فقل: كان هو المجتمع الأوربي الذي يمكن أن يتصف بالثقافة والأدب حينذاك.

الخطوط العريضة...
من حياة...
طارق بن زياد...؟!

جاء في كتاب «الأعلام» تأليف «خير الدين الزركلي»:

طارق بن زياد

نحو ٥٠ ـ ١٠٢هـ

٦٧٠ ـ ٧٢٠م

طارق بن زياد الليثي بالولاء..
فاتح الأندلس...
أصله من البربر...
أسلم على يد موسى بن نصير...
فكان من أشد رجاله...
ولما تم لموسى فتح طنجة، ولى عليها طارقًا (سنة ٨٩هـ)...
فأقام فيها إلى أوائل سنة ٩٢هـ...
فجهز موسى نحو ١٢٠٠٠ معظمهم من البربر، لغزو الأندلس...
وولى طارقًا قيادتهم..
فنزل بهم البحر...
واستولى على الجبل (جبل طارق)...
وفتح حصن قرطاجنة..

وتغلغل في أرض الأندلس...
بعد أن أحرق السفن التي جاء عليها بجيشه...
وحاربه الملك رودريك (والعرب تسميه رذريق)...
فقتله طارق..
وافتتح إشبيلية... وأستجة...
وأرسل من استولى على قرطبة ومالقة...
ثم احتل طليطلة (عاصمة الأندلس)...
وتوجه شمالًا فعبر وادي الحجارة..
ووادِيًا آخر سمي فج طارق...
واستولى على عدة مدن...
منها مدينة سالم...
التي يقال إن طارقًا عثر فيها على مائدة سليمان...
وعاد إلى طليطلة (سنة ٩٣هـ)...
فالتقى بموسى بن نصير...
وكان قد حذره من التوغل في الفتوح والمغامرة بمن معه...
فعاقبه بالعزل من القيادة...
ثم أعاده الوليد بن عبد الملك وأصلح ما بينه وبين موسى...
وعاد طارق إلى غزواته...
فصعد من طليطلة شرقًا.. إلى منابع نهر التاجة...
واستعان بموسى على فتح سرقسطة فافتتحاها...
واحتل طرطوشة...
وبلنسية... وشاطبة... ودانية...

واستدعاه الوليد إلى الشام... فقصدها مع موسى سنة ٩٦هـ... وأقوال المؤرخين مضطربة في خاتمة أعماله...

والراجح أنه لم يول القيادة بعد ذلك...!!!

★ ★ ★

ومن كتاب «سير أعلام النبلاء»... تأليف «الإمام شمس الدين الذهبيّ»:

طارق؟!

مولى موسى بن نصير...

وكان أميرًا على طَنْجة بأقصَى المغرب...

فبلغه اختلاف الفَرَنْج واقتتالهم... وكاتبه صاحب الجزيرة الخضراء... ليُمدَّه على عدوه...

فبادر طارق... وعدَّى في جنده... وهزم الفرنج...

وافتتح قُرْطُبة... وقتل صاحبها لُذْريق...

وكتب بالنصر الى مولاه... فحسده على الانفراد بهذا الفتح العظيم...

وتوعَّدَه... وأمره أن لا يتجاوز مكانه...

وأسرع موسى بجيوشه...

فتلقَّاه طارقُ وقال: إنما أنا مولاك... وهذا الفتحُ لك..

فأقام موسى بن نُصَيْر بالأندلس سنتين يغزو ويَغْنَم...

وقَبَضَ على طارق... وأساء اليه...

ثم استخلف على الأندلس ولدَه عبد العزيز بن موسى... وكان جندُه عامَّتُهم من البَرْبَر فيهم شجاعة مُفْرطة وإقدام...

وله فتوحات عظيمة جدًّا بالمغرب، كما كان لقُتَيْبَة بن مسلم بالمشرق ـ في

هذا الوقت - فتوحاتٌ لم يُسْمَعْ بمثلها..

وفي هذه المدة وبعدها كانت غزوة القسطنطينية في البر والبحر... ودام الحصار نحوًا من سنة... وكان علم الجهاد في أطراف البلاد منشورًا... والدين منصورًا... والدولة عظيمة... والكلمة واحدة!!!

ماذا عن...

موسى بن نُصَير...

أستاذ «طارق بن زياد» ؟!

يتقاسم مجد فتح الأندلس... بطلان... أحدهما موسى بن نصير... والآخر طارق بن زياد...

وقبل ان ندخل إلى طارق... نقول: ماذا عن موسى بن نُصَير؟!...

كان[1] موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغَرب...

من التابعين...

ولد سنة ١٩ هـ في خلافة أمير المؤمنين عُمَر في قرية من قرى الجزيرة...

وأنَّ أباه نصيرًا كان على حرس معاوية بن أبي سفيان...

ثم كان وصيفًا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه...

وأما عن حياة موسى الأولى... كل ما نعرفه أنه تقلب في بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة قبل ان يعهد إليه بحكم إفريقية...

وأنه قاد الحملات البحرية في عصر معاوية بن أبي سفيان...

وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة...

وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال في سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م)...

---

(١) باختصار عن «دولة الإسلام في الأندلس» تأليف محمد عبد الله عنان...

عبقرية موسى بن نُصَير؟!

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل... وسيَّره عبد العزيز بن مروان في سنة ٨٤ هـ إلى برقة...

فافتتح درنة وسبى من أهلها جوعاً غفيرة...

وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم يتجنبون الفرصة للثورة كلما سنحت...

فما كاد موسى يلي الحُكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير في الحُكم...

ولكنهم أخطأوا في تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته...

وسرعان ما سُحقت الثورة في كل ناحية...

ومزَّق موسى جموع الثوار بيد من حديد...

ودوَّخ هوارة وزناتة وكِتَامة وصَنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية...

بدء ظهور طارق؟!

ثم سار إلى طَنْجة وهي آخر معقل اعتصم به الثوار... ولم يكن غزاها العرب بعد...

فافتتحها وولَّى عليها جنديًا عظيمًا...

هو طارق بن زياد الليثي...

وأثخن في مفاوز المغرب الأقصى... وطهَّرها من العصاة والمتآمرين...

وأحرز في تلك الغزوات من الغنائم والسبي ما لا يُحصى...

واستمال إليه وجوه القبائل...

وحشد في جيشه آلافًا من البربر المسالمين...

واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتمامًا عظيمًا... فأقبلوا على اعتناقه وذاع بينهم ذيوعًا كبيرًا...

وهبَّت ريح من الأمن والسكينة على البلاد المفتوحة...

أنشأ أسطولًا بحريًا؟!

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا في الحرب البرية ويئسوا من استرداد إفريقية... قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها...

فابتنى موسى دارًا عظيمة للصناعة (بناء السفن) على مقربة من أطلال قرطاجنة... وأنشأ أسطولًا ضخمًا لحماية الثغور...

وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى في تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام...

وسيَّر موسى ابنه عبدالله في السفن إلى الجزر القريبة... فغزا جزر البليار... وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطي... وافتتح منها ميورقة ومنورقة...

وسارت حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت في ثغورها... وعادت مثقلة بالسبي والغنائم...

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالي افريقية كله في البرّ والبحر...

الكونت يُولْيان؟!

ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طَنْجة سوى ثغر سَبْتة الواقع في نهاية البحر الأبيض المتوسط شرقي طنجة...

وكانت يومئذ من أملاك إسبانيا... ويحكمها أمير من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يُولْيان...

وكانت سَبْتة قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها أن ترد هجمات العرب رغم مجاورتهم لها من الجنوب والغرب...

وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين...

على أن مشاريعه في الفتح لم تكن تقف عند سَبْتة...

بل كانت تجاوزها إلى ما وراء ذلك البحر الشاسع الذي عرف العرب كثيرًا عن شواطئه الشرقية والجنوبية... ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئًا أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية...

أجل... كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة»...!!!

وماذا عن...

إسبانيا...

قبل الفتح الإسلامي؟!

كانت اسبانيا[1] في الوقت الذي امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطئ القريبة منها وإلى الجزر المجاورة لها... خاضعة لنير القوط...

وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة...

فلما اضمحل سلطان رومة وغزتها القبائل البربرية الجرمانية في أوائل القرن الخامس الميلادي... اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية...

واستولت على ايطاليا وفرنسا واسبانيا...

وكانت اسبانيا من نصيب القوط...

والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التي هبطت من شمال أوروبا وقوضت صروح الامبراطورية الرومانية...

ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى مَلَك القوط شبه الجزيرة كلها...

وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطئ اسبانيا الجنوبي...

ولكن الفرنج غزوهم من الشمال وأجلوهم عن فرنسا في أعوام قلائل...

فاستقروا في اسبانيا واتخذوا طليطلة دار مُلْكهم... ووضعوا

---

(١) باختصار عن «دولة الإسلام في الاندلس» لمحمد عبد الله عنان.

لمملكتهم الجديدة نظمًا وقوانين خاصة تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية...

وكانوا أيضًا قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع... كما اعتنقها غيرهم من الشعوب البربرية التي تقاسمت تراث رومة وأملاكها...

ولبث القوط زهاء قرنين سادة لأسبانيا حتى الفتح الإسلامي...!!!

حكومة فاسدة...

وشعب من...

العبيد...؟!

حالة اسبانيا
وقت الفتح[1] ...

كان المجتمع الاسباني يعاني صنوف الشقاء والبؤس...

وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار...

ولم يكن القوط أمة بمعنى الكلمة... بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة...

وينعمون باحراز الاقطاعات والضياع الواسعة...

ومنهم وحدهم الحُكام والسادة والأشراف...

أما سواد الشعب الأعظم فقوامه طبقة متوسطة رفيقة الحال...

وزراع شبه ارقاء يلحقون بالضياع...

وأرقاء للسيد له عليهم حق الحياة والموت...

---

(١) نفس المصدر السابق..

رجال الدين

وإلى جانب السادة والأشراف يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ...

ذلك ان القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم... وكان للأحبار عليهم أيما تأثير... وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم... وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية وفقًا لمُثل الكنيسة وغاياتها...

ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات واقتناء الزراع والأرقاء...

وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجتمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين... اختصت بترف العيش ومتاع الحياة... وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار...

شعْب من العبيد؟!

أما الشعب فقد كان في حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس...

يعاني أمَرّ ضروب الظلم والعسف والإرهاق...

ويُخص وحده دون الطبقات الممتازة بأعباء المغارم والضرائب الفادحة... ومشاق العمل... والسخرة في ضياع الأشراف والأحبار...

وتسلبه فروض العبودية والرّق كل شعور بالعزّة والكرامة...

ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض والمغارم الفادحة عبء الحرب والدفاع عن الوطن!!!

انحلال وفساد؟!

وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام قد فقدت وحدتها وروحها القومي وقوتها المعنوية لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة...

فكذلك كان الجيش الاسباني منذ العهد الروماني قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود...

فلما حلّ القوط في اسبانيا وذاقوا نعم السلم... وتبوءوا مراكز السيادة... اعتمدوا في الدفاع عن مُلْكهم الجديد على هذا الجيش الذي تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها...

ولا ريب ان شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر بكثير من الأحرار... وهذا ما يعني أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم...

أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية البديعة... وركنوا إلى حياة النعماء والدعة...

وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجود وترف العيش...

ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة...

اضطهاد يهود اسبانيا؟!

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة...

ولكنهم كانوا ضحية البُغض والتعصب والتحامل...

يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد...

وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود...

وتتوسل إلى تحقيق غاياتها بالعنف والمطاردة!!!

ففي عصر الملك سيزبوت فَرَض التنصير على اليهود... أو النفي أو المصادرة!!!

فاعتنق النصرانية كثير منهم كرهًا ورياءً (سنة ٦١٦ م)...

ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن...

فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة...

وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون...

ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤ م)!!!

استبعاد اليهود إلى الأبد؟!!

وكان ذلك في عهد الملك اجيكا...

فقرر أن يشتد في معاقبتهم... واجتمع مؤتمر الأحبار في طُلَيْطلة للنظر في ذلك...

وأجاب الملك إلى ما طلبه...

وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها...

ولأنهم ارتدوا عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل...

وقرر أن ينتزع أملاكهم في سائر الولايات الاسبانية...

وأن تحول إلى جانب العرش!!!

وأن يشردوا ويُقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى!!!

وأن يهبهم الملك عبيدًا لمن شاء!!!

وألا يُسمح لهم باسترداد حريتهم ما بقوا على اليهودية!!!

وأن يُحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم!!!

وأن يُنزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية!!!

وألا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية!!!

ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني!!!

وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف...

فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يُطاق...

وكانوا كباقي طوائف الشعب المهيضة يتوقون إلى الخلاص...

ويرون في أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين!!!

هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطئ الأندلس!!!

حكاية . . .

« فلورندا أوكاڤا » . . .

الفتاة رائعة الجمال . . . ؟!

يروي الرواة... أن الكونت[1] يُولْيان كان قوطيًا اسبانيا. وكان حاكمًا لسَبْتَة... وهي يـومئـذ مـن أملاك العـرش القـوطـي... وأنـه كـان رجلًا شجاعًا... ولكنه كان مغامرًا منتقمًا... وكان يقبض على مفتاح اسبانيا بحُكمه لسَبْتَة والمضيق... وكان من خصوم الحُكْم الجديد في اسبانيا... فاتصل به الزعماء الخوارج... واستقر الرأي على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت...

وهذا هو التعليل التاريخي للتحالف الذي عقد بين يوليان وموسى بن نُصَير... وانتهى بفتح العرب لاسبانيا...

ولكن الرواية... والرواية الإسلامية بنوع خاص... تقدم إلينا تعليلًا آخر...

فتقول لنا إن يُولْيان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصي أيضًا...

فقد كانت له ابنة رائعة الحُسْن تُدعى «فلورندا أوكافا» أرسلها إلى بلاط طُلَيْطلة جريًا على رسوم ذلك العصر لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان...

فاستهوى جمالها الفتَّان قلب ردريك (ملك اسبانيا)...

---

(١) عن «دولة الإسلام في الاندلس» بتصرف.

فاغتصبها... وانتهك عفافها!!!

وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه... وأقسم بالانتقام... ونَزْع ردريك من ذلك العرش الذي اغتصبه...

فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه... والتجأ هؤلاء الخصوم إليه... رأى الفرصة سانحة للعمل... ولم ير خيرًا من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا!!!

كيف بدأ...
فتح الأندلس؟!

في الوقت[1] الذي كانت شبه الجزيرة الاسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات الخطيرة...

كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى... واستولوا على ثغر طَنْجة... وأشرفوا على شواطئ الأندلس من الضفة الأخرى من البحر...

ولم يبق لاتمام فتح إفريقية سوى ثغر سَبْتة الذي يقع مقابل طَنْجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي...

وكانت سَبْتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يُولْيان أن تحبط كل محاولة لأخذها...

وكان موسى بن نُصَير يتوق إلى افتتاح هذا الثغر المنيع وتطهير افريقية من البقية الباقية من العدو...

يُولْيان يفاوض موسى بن نُصَير؟!

وبينما هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية إذ جاءته رسالة من الكونت يُولْيان نفسه يعرض فيها تسليم معقله...

(١) عن « دولة الاسلام في الاندلس » باختصار.

ويدعوه إلى فتح اسبانيا!!!

وجرت بينهما المفاوضة في هذا المشروع الخطير...

وقيل انهما اجتمعا في سفينة في البحر...

فلما علم من يُولْيان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق... وما يسودها من الانحلال والضعف...

ورأى مما يعرضه يُولْيان من تسليم سَبْتة وباقي معاقله... وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر... ومعاونته بجنده وإرشاده... أن الفوز ميسور محقق...

كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع...

فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا...

أعني بالحملات الصغيرة بادئ بدء... وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر!!!

بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية في هذه المياه... وغزوا صقلية وسردانية... واستولوا على جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكان البحر الذي يفصل بين إفريقية والأندلس مجازًا ضيقًا سهل العبور!!!

سرية طريف بن مالك؟!

ونزل موسى على نصح الخليفة في اختبار الفتح الجديد بالسرايا...

وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة... فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك...

فعبروا البحر من سَبْتة في أربع سفن قدَّمها يُولْيان... إلى البقعة المقابلة التي سميت جزيرة طريف... باسم قائد الحملة...

وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليو سنة ٧١٠ م)...

وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يُولْيان...

فأصابت كثيرًا من الغنائم...

وقوبلت بالإكرام والترحيب...

وشهدت كثيرًا من دلائل خصب الجزيرة وغناها... ثم عادت في أمن وسلام!!!

وقصّ قائدها على موسى نتائج رحلته... فاستبشر بالفوز... وجدّ في أهبة الفتح!!!

طارق بن زياد ...
يفتح ...
الأندلس ...؟!

وفي شهر[1] رجب سنة اثنتين وتسعين (ابريل سنة ٧١١ م)...

جهز موسى جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل...

بقيادة طارق بن زياد الليثي...

وكان يومئذ حاكمًا لطَنْجة...

ومن الغريب أنّ الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشيء قبل ولايته لطَنْجة...

بل انها لتختلف في أصله ونسبته...

فقيل هو فارسي من همذان... كان مولى لموسى بن نُصَيْر...

وقيل انه من سبي البربر...

وقيل أخيرًا إنه بربري من بطن من بطون نفزة... وهذه فيما يظن أرجح رواية... وهي رواية يؤيدها صاحب البيان المغربي... بايراد نسبة طارق مفصلة... ويبدو منها أنّ طارقًا تلقى الإسلام عن أبيه زياد... عن جده عبدالله... وهو أول اسم عربي إسلامي في نسبته... ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي إلى نفزة... وهي القبيلة التي ينتمي إليها!!!

---

(١) عن «دولة الاسلام في الاندلس» باختصار.

جبل طارق؟!

وكان طارق جنديًا عظيمًا... ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته...

وقدّر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحُكم طَنْجة وما يليها... وهي يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرابًا...

ثم اختاره لفتح الأندلس...

فعبر البحر من سَبْتة بجيشه تباعًا في سفن يُولْيان القليلة...

ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة... التي ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم...

أعني جبل طارق!!!

وذلك في يوم الاثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ ابريل سنة ٧١١ م)!!!

طارق يسحق أديكو؟!

واخترق طارق المنطقة المجاورة غربًا بمعاونة يُولْيان وإرشاده...

وزحف على ولاية الجزيرة التي كان يحكمها تيودومير القوطي عامل ردريك واحتل قلاعها... بعد أن هزم شراذم من القوط تصدت لوقفه...

وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طُلَيْطلة بالخطر الداهم... وكان ردريك يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج في الولايات الشمالية...

فهرول إلى طُلَيْطلة شاعرًا بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته...

وبعث قائده «أديكو» لرد العدو حتى يستكمل أهبته...

ولكن طارقًا هزمه... ثم اخترق بسائط «الفرنتيرة»[1] معتزمًا السير صوب عاصمة القوط!!!

١٢٠٠٠ يهزمون... مائة ألف؟!!

وكان ردريك... أو «رذريق» كما يسميه العرب... أميرًا شجاعًا وافر المقدرة والعزم... ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيرًا من البغضاء والسخط...

وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف...

ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد...

واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة...

وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف...

وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين...

وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة...

فكتب إلى موسى يستنجد به... فأمده بخمسة آلاف مقاتل...

فبلغ المسلمون اثني عشر ألفًا...

وانضم إليهم يُولْيان في قوة صغيرة من صحبه وأتباعه!!!

(١) La Frontera هي المنطقة الوسطى والغربية في المثلث الاسباني.

طارق يُدَمِّر جيش العدو؟!

كان القوط أضعاف المسلمين...

وكان المسلمون يقاتلون في أرض العدو في هضاب ومفاوز شاقة...

ولكن قائدهم الجريء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم...

فكان اللقاء بين الجيشين في سهل شريش الفرنتيرة...

هناك تلاقى العرب والقوط... الاسلام والنصرانية... وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ (١٧ يوليو سنة ٧١١ م)...

وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة...

وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة...

وظهر ردريك وسط الميدان في حلل ملوكية... فوق عرش تجره الخيل المطهمة...

وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تهكمه إذ يقول:

« ولقد يخجل ألاريك (مؤسس دولة القوط) عند رؤية خلفه (ردريك) متوجًا باللآلئ... متشحًا بالحرير والذهب... مضطجعًا في هودج من العاج »!!!

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وقُلُوبُهُمْ شَتَّى؟!

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة... وبين القوى المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام...

ولكن الجيش القوطي كان رغم كثرته مختل النظام منحل العُرَى...

وكان يقود جناحيه ايفا وسيزبوت خصما « ردريك »...

وتتكون صفوفه من أتباعها وأتباع حلفائها من الأمراء والزعماء الناقمين الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر... وكلهم يتحين الفرصة للايقاع بالملك المغتصب... فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شر ممزق...

واستمال يُولْيان والأسقف أوياس وهما في صف المسلمين كثيرًا من جند القوط... وبثّا بدعايتهما في الصفوف الموالية لردريك كثيرًا من عوامل الشقاق والتفرق... فأخذ كل أمير يسعى في سلامة نفسه!!!

وتمكن الجيش الإسلامي على ضآلة عدده بجلده وثباته واتحاد كلمته... من جيش القوط...

فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده... وهزم القوط شر هزيمة... وشتتوا ألوفًا في كل صوب!!!

نهاية الطاغية «ردريك»؟!

أما «ردريك» آخر ملوك القوط... فقد اختفى عقب الموقعة... ولم يُعثر له بأثر...

ونقول بعض الروايات انه فرّ عقب الهزيمة على ظهر جواده... ولكنه غرق في مياه النهر...

وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه الرواية...

وتقول لنا ان ملك القوط مات غريقًا... وانهم عثروا على جواده وسرجه الذهبي ولم يعثر إنسان بجثته...

وينفرد صاحب كتاب الإمامة والسياسة برواية أخرى... وهي أن طارقًا ظفر بجثة ردريك فاحتز رأسه وبعث بها إلى موسى بن نُصَير... وبعث بها موسى إلى الخليفة...

ولكن المرجح في هذه الروايات هو أن ردريك فقد حياته في الموقعة التي فقد فيها مُلكه... وأنه مات قتيلًا أو غريقًا على الأثر!!!

هكذا كانت موقعة «شَذُونة» التي دالت فيها دولة القوط...

بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها في غاليس...

وغنم الإسلام فيها مُلْك اسبانيا!!!

البطل الفاتح...

طارق بن زياد...

يفتح الأندلس...

في عام واحد؟!!

وعلى أثر[1] الموقعة الحاسمة التي غُلب فيها الجيش القوطي ومُزّق... ساد الرعب على القوط... فامتنعوا بالحصون والجبال وقصدوا إلى الهضاب والسهول...

وذاعت أنباء النصر في طَنْجة وسَبْتة وما جاورهما من أراضي العُدوة...

فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر...

طارق يزحف شمالًا؟!

وزحف طارق بجيشه شمالًا...

وكانت بقية الجيش القوطي قد اجتمعت عند استجة لتحاول رد الجيش الفاتح...

فالتقى الجيشان هناك ثانية... وهُزم القوط مرة أخرى...

(١) عن كتاب «دولة الاسلام في الاندلس» باختصار.

ولم يبق إلا ان يستولي الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى!!!

وكان يُولْيان وأصحابه إلى جانب المسلمين يعاونهم بالنصح والإرشاد...

ففي استجة وضعت خطة السير... وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طُلَيْطلة عاصمة المملكة القوطية...

وأرسل طارق مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قُرْطُبة في سبعمائة فارس...

فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة...

وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة والبيرة ومالقة...

فافتتحت مالقة وفرّ سكانها إلى الجبال...

ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى البيرة وغرناطة...

فحوصرت غرناطة قليلًا وفُتحت!!!

ثم فُتحت البيرة...

وكان اليهود يعاونون المسلمين في كل هذه الفتوح... فكان المسلمون يضمون اليهم في كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها...

سقوط ولاية مرسية؟!

ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقًا نحو ولاية مرسية...

وكانت تسمى يومئذ تيودمير باسم أميرها... وقاعدتها مدينة أوريولة...

وكان تيودمير جنديًا كبيرًا، وافر العزم والبأس...

فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله... فارتد إلى أوريولة... وامتنع بها...

عرض النساء في أثواب الرجال؟!

وعرض النساء... على الاسوار في أثواب الرجال إيهامًا بكثرة جنده... واستطاع بثباته وجلده أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة... أنقذت بها مدينته من السبي والجزية!!!

سقوط طليطلة؟!

وسار طارق ببقية الجيش إلى طُلَيْطلة... مخترقًا هضاب الأندلس وجبال « سييرا مورينا » التي تفصل بين الأندلس وقشتالة... بارشاد يُوليان وأصحابه...

وكان القوط قد فرّوا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم...

ولم يبق بها سوى اليهود... وقليل من النصارى...

فاستولى طارق عليها!!!

وأبقى على مَنْ بقي من سكانها...

وترك لأهلها عدة كنائس... وترك لأحبارها حرية اقامة الشعائر الدينية!!!

وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم...

واختار لحُكمها وادارتها « أوباس »... مطرانها السابق.

طارق يتابع الزحف شمالًا ؟!

وتابع طارق زحفه شمالًا...

فاخترق قشتالة... ثم ليون... في وهاد ومفاوز صعبة...

وطارد فلول القوط حتى أسترقة...

فلجأت إلى قاصية جليقية... واعتصمت بجبالها الشامخة...

وعبر طارق جبال اشتوريش واستمر في سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية...

فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته...

وردَّه عباب المحيط عن التقدم... فعاد إلى طُلَيْطلة...

حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح...

وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا!!!

موسى بن نُصَير . . .
ينافس طارقًا . . .
في إتمام فتح الأندلس؟! . . .

عبر موسى[1] البحر إلى اسبانيا... في عشرة آلاف من العرب... وثمانية آلاف من البربر...

في سفن صنعها خصيصًا لذلك يحفزه شغف الفتح... بالرغم من شيخوخته...

الزحف في رمضان؟!

ونزل بولاية الجزيرة... حيث استقبله الكونت يُولْيان...

وذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيو سنة ٧١٢ م)...

سقوط شَذُونة؟!

وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة...

ثم سار إلى قرمونة وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس... فاستولى عليها بمعاونة يُوليان وأصحابه...

(١) عن «دولة الإسلام في الاندلس» باختصار.

سقوط إشبيلية؟!

وقصد بعدئذ إلى إشبيلية... أعظم قواعد الأندلس... فافتتحها بعد أن حاصرها شهرًا!!!

ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة... وقُتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين في كمين دبَّره النصارى...

وانتهت بالتسليم في رمضان سنة أربع وتسعين... على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين... دية لمن قُتل منهم...

موسى بن نُصَير... يأمر بسجن طارق؟!!

وقصد موسى بعدئذ إلى طُلَيْطلة... فالتقى بطارق على مقربة منها...

وكان قد سار إلى استقباله...

فأنَّبه... وبالغ في إهانته... وزجَّه مصفَّدًا إلى ظلام السجن... بتهمة الخروج والعصيان!!!

وقيل بل همَّ بقتله!!!

ولكنه ما لبث أن عفا عنه... وردَّه إلى منصبه!!!

وينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق... هي أن طارقًا استجار بمغيث الرومي... وكان عائدًا من الأندلس إلى المشرق... ووعده بمائة عبد إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك. فقام مغيث بالرسالة... وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه. وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس... فأفرج موسى عن طارق... وردَّه إلى منصبه!!!

البَطَلان يتسابقان إلى فتح بقايا الأندلس؟!

ووضع الاثنان خطة لافتتاح ما بقي من اسبانيا...
ثم زحفا نحو الشمال الشرقي... واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى)...
وافتتحا سرقسطة وطركونة وبرشلونة... وغيرها من المدائن والمعاقل...

ثم افترق الفاتحان؟!

فسار طارق نحو الشرق ليغزو جليقية... وليتم القضاء على فلول القوط...

وسار موسى شمالًا فاخترق جبال البرت... وغزا ولاية «لانجدوك» التي كانت تابعة إذ ذاك لملوك القوط...

واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة (ناربون)...

ثم نفذ إلى مملكة الفرنج... وغزا وادي الرون... حتى مدينة لوطون (ليون)!!!

فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة...

ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونة...

ومعظم الروايات على ان موسى وقف في زحفه عند أربونة!!!

موسى بن نُصَير...

يفكِّر في اختراق...

أوروبا كلها من الأندلس...

حتى يصل إلى الشام...

عن طريق قسطنطينية!!!

وهُنا فكّر[1] القائد الجريء في أن يخترق بجيشه جميع أوروبا... غازياً فاتحاً...

وأن يصل إلى الشام من طريق القسطنطينية...

وأن يفتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها...

وهو ما يجمله ابن خلدون في تلك العبارة القوية:

«وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية... ويتجاوز إلى الشام ودروب الأنـدلس... ويخوض مـا بينهـا مـن بلاد الأعـاجـم وأمـم النصرانية... مجاهدًا فيهم... مستلحمًا لهم... إلى أن يلحق بدار الخلافة»!!!

وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرينيه... يؤيده من البحر أسطول قوي...

فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج...

ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد في شمالي ايطاليا... فيخترقها فاتحًا إلى رومة قاعدة النصرانية... فيفتتحها ويقضي فيها على كرسي النصرانية..

(١) عن «دولة الإسلام في الاندلس» باختصار.

ويتابع سيره بعدئذ شرقًا إلى سهول الدانوب مثخنًا في القبائل الجرمانية التي تسيطر على صفافه...
ثم يخترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية... فيستولي عليها...
ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصدًا إلى دمشق!!!
فيصل بذلك أملاك الخلافة الاسلامية... فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال... كما اتصلت من طريق الجنوب!!!

لا شيء يحول دون تنفيذ هذا المشروع الجبَّار؟!

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم...
فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس...
وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت...
وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال...
وكانت مملكة الفرنج وهي أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرق...
وقد بدأ العرب غزوها بالفعل...
ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام... ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها في جبهة دفاعية موحدة...
ولم تكن أوروبا في ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة تمزقها المطامع والأهواء المختلفة...
فكان الإسلام الظافر يستطيع غزوها وفتحها!!!

أضاع بلاط دمشق الفرصة الكبرى؟!

ولم يكن حُلمًا... واغراقًا ما تصوّره موسى بن نُصَير واعتزمه...

ولكن سياسة الأحجام والتردد التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية... والتي كادت تحول دون فتح اسبانيا... أودت بذلك المشروع البديع...

وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة...

ويأمره بالعود!!!

الخليفة يستدعي موسى وطارقًا؟!

فارتدَّ موسى مرغمًا آسفًا!!!

ولكنه تمهَّل في العود حتى يتم اخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط... ويطهِّر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة...

فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها... ومزَّق كل قوة تصدت لمقاومته...

ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى «بلاجيوس»... ولجأت إلى قاصية جليقية...

وبينا كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها... وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقًا... ويأمرهما بتعجيل العود!!!

الدوافع لاستدعاء البَطَلين؟!

ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمي إليه من خلاف موسى وطارق... وخوفه ان ينتهي هذا الخلاف بتفرق كلمة المسلمين... ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها...

أو لعله خوف الوليد ان يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه في الاستقلال بذلك الملك الجديد النائي!!!

وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التي اغتنمت من الأندلس... وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد...

ومهما كانت العوامل التي دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحي الأندلس... فلا ريب انه كان خطرًا على مستقبل الإسلام في اسبانيا...

ذلك ان هذه الشراذم النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية... لم تلبث أن نمت وقويت... وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال... ولبثت قرونًا تكافح دولة الإسلام في اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها!!!

عودة موسى وطارق إلى دمشق؟!

واتخذ موسى بن نُصَير أهبته للعود إلى دمشق... نزولًا على أوامر الخليفة...

فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع...

وجعل حاضرتها اشبيلية لاتصالها بالبحر... وكانت حاضرتها أيام الرومان...

واختار لولايتها ولده عبد العزيز...
واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك...
كما استخلف على افريقية عبدالله أكبر أولاده...
وفي شهر ذي الحجة سنة خمس وتسعين (اغسطس ٧١٥ م) قفل راجعًا إلى المشرق وطارق معه...
وفي ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يُوصف...
ومن أشراف السبي عدد عظيم!!!

لطائف...
روايات الأقدمين...
في فتح الأندلس...؟!

جاء في كتاب «نَفْح الطّيب من غصْن الأندلس الرطيب» لمؤلفه أحمد بن محمد المقرّي التلمساني... المتوفى سنة ١٠٤١ هـ:

أخبار الفتح؟!(١)

أوّل مَن دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريفٌ البربريٌّ... مولى موسى بن نُصَيْر الذي تنسب إليه جزيرة طريف التي على المجاز... غزاها بمعونة صاحب سَبْتة بُلْيانَ النصراني... لحقده على «لُذَرِيقَ» صاحب الأندلس...

وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل... جاز البحر في أربعة مراكب... في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين... وانصرف بغنيمة جليلة...

فعقد موسى بن نُصَيْر صاحب المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس... ووجّهه مع يُولْيان صاحب سَبْتة...

---

(١) باختصار وتصرف عن «نفح الطيب».

أوّل أسباب فتح الأندلس؟!

وقيل: إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن ولّى الوليدُ بن عبد الملك... موسى بن نُصَير... مولى عمّه عبد العزيز على إفريقية وما خَلْفَها... سنة ثمان وثمانين...

فخرج في نفر قليل من المطّوّعة... فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثًا... وفعل ذلك في إفريقية...

وجعل على مقدمته مولاه طارقًا[1]...

فلم يزل يقاتل البربر...

ويفتح مدائنهم... حتى بلغ مدينة طَنْجة... وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم... فحصرها حتى فتحها... وأسلم أهلُها... ولم تكن فُتحت قبله!!!

طارق بن زياد؟!

وقيل: طارق بن زياد من إفريقية...

وقال ابن بَشْكُوال:

إنه طارق بن عمرو... فتح جزيرة الأندلس ودوّخها...

وإليه يُنسب جبل طارق الذي يعرفه العامة بجبل الفتح... في قبلة الجزيرة الخضراء...

ورحل مع سيّده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره.

---

(١) لاحظ أنّ طارقًا صعد إلى القيادة من بداية فتوحات موسى في إفريقية وهذا دليل امتيازه المبكر!

وقال أيضًا:

إن طارقًا كان حسن الكلام... ينظم ما يجوز كتْبه... وأما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس وما فتح فيها من البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نُصَير...

يا طارق... تَقَدَّم لشأنك؟!

ومن تاريخ ابن بَشْكُوال:

احتل طارق بالجبل المنسوب إليه يوم الاثنين... لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين...

في اثني عشر ألفا... غير اثني عشر رجلًا من البربر...

ولم يكن فيهم من العرب إلا شيء يسير...

وإنه لما ركب البحر رأى وهو نائم النبيَّ (ﷺ)... وحوله المهاجرون والأنصار... قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القِسِيّ... فيقول له رسول الله (ﷺ):

«يا طارق... تقدم لشأنك»

ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه...

فهبَّ من نومه مستبشرًا... وبَشّر أصحابه... ثابتْ نفسُه ببشراه... ولم يشكّ في الظفر!!!

فخرج من الجبل... واقتحم بسيط البلد شانًّا للغارة...

عجوز تُبَشِّر طارقًا ؟!

وأصاب عجوزًا من أهل الجزيرة فقالت له في بعض قولها : « إنّه كان لها زوج عالم بالحدثان، فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا فيغلب عليه... ويصف من نعته أنه ضَخْم الهامة... فأنت كذلك... ومنها أن في كتفه اليسرى شامة عليها شَعَر... فإن كانت فيك فأنت هو... فكشف ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت... فاستبشر بذلك ومَن معه!!!

مَلِك اسبانيا على رأس مائة ألف؟!

وقالوا : لما حَرَّضَ يُليانُ النصراني صاحبُ سَبْتة... للأمر الذي وقع بينه وبين صاحب الأندلس... موسى بن نُصَير على غزو الأندلس...

جهز لها مولاه طارقًا المذكور في سبعة آلاف من المسلمين...

جُلّهم من البربر... في أربع سفن...

وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين...

ولم تزل المراكب تعود حتى توافى جميعُ أصحابه عنده بالجبل...

ووقع على لُذَريق صاحب الأندلس الخبرُ... وأن يُلْيان السبب فيه... وكان يومئذ غازيًا في جهة البُشْكَنس...

فبادر في جوعه وهم نحو مائة ألف ذوي عَدَدٍ وعُدّة...

وكتب طارق إلى موسى بأنه قد زحف إليه لُذَريق بما لا طاقة له به...

وكان عمل من السفن عِدّة... فجهز له فيها خمسة آلاف من المسلمين... فكملوا بمن تقدّم اثني عشر ألفًا...



جبل طارق كما يبدو من مدينة الجزيرة الخضراء

ومعهم يُلّيان صاحب سَبْتة في حشده يدلّهم على العورات... ويتجسس لهم الأخبار...

وأقبل نحوهم لُذَريق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها... وقلوبهم عليه...

فتلاقوا فيما بينهم وقالوا: إن هذا الخبيث غلب على سلطاننا... وليس من بيت المُلْك... وإنما كان من أتباعنا... ولسنا نعدم من سيرته خبالًا واضطرابًا... وهؤلاء القوم الذين طرّقوا لا حاجة لهم في إيطان بلدنا... وإنما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنّا... فهلمّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم... فلعلهم يكفوننا أمره... فإذا هم انصرفوا عنّا أقعدنا في مُلكنا من يستحقّه... فأجمعوا على ذلك!!!

رواية ابن خلدون في فتح الأندلس؟!

وقال ابن خلدون:

بعد ذكره أن القوطيين كان لهم مُلك الأندلس... وأن مَلِكهم لعهد الفتح يسمى لُذَريق ما نصّه:

«وكانت لهم خَطْوة وراء البحر في هذه العُدْوة الجنوبية خَطْوها من فُرْصة المجاز بطنجة، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر، واستعبدوهم...

وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى يُلْيان، فكان يَدينُ بطاعتهم وبملتهم...

وموسى بن نُصَيْر أمير المغرب إذ ذاك عامل على إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك، ومنزله بالقَيْروان...

وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى...

ودوّخ أقطاره... وأثخن في جبال طَنْجة هذه حتى وصل خليج الزُّقاق...
واستنزل يُلْيان لطاعة الاسلام...
وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي واليًا بطَنْجة...

ملك اسبانيا يغتصب ابنة يُلْيان؟!

وكان يُلْيان ينقم على لَذَريق ملك القوط لعهده بالأندلس فعلةً فعلها زعموا بابنته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقتهم...
فغضب لذلك... وأجاز إلى لذريق... وأخذ ابنته منه...
ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط... ودلّهم على عورة فيهم أمكنت طارقًا فيها الفرصة فانتهزها لوقته!!!

البطل يبدأ الفتح؟!

وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نُصَير في نحو ثلثمائة من العرب... واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف...
فصيرهم عسكرين: أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح...
فسمّي جبل طارق به... والآخر على طريف بن مالك النخعي... ونزل بمكان مدينة طريف فسمّي به...
وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن... وبلغ الخبر إلى لذريق فنهض إليهم يجرُّ أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفًا، وزحفوا إليه...



مدينة طريف في الجنوب

فالتقوا بفَحْص شريش...

فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم...

وكتب طارق إلى موسى بن نُصَير بالفتح وبالغنائم...

فحركته الغيرة، وكتب إلى طارق يتوّعده إن توّغل بغير إذنه... ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به!!!

موسى بن نُصَير... يستبق فتح الأندلس؟!

واستخلف على القَيْروان ولده عبدالله... وخرج ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري...

نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعُرَفاء البربر...

ووافى خليج الزُّقاق ما بين طَنْجة والجزيرة الخضراء... فأجاز إلى الأندلس...

وتلقّاه طارق فانقاد واتبع...

وأتمَّ موسى الفتح... وتوغّل في الأندلس إلى بَرْشلونة في جهة الشرق... وأربونة في الجوف... وضحم قادس في الغرْب... ودوَّخ أقطارها... وجمع غنائمها!!!

موسى بن نُصَير . . . يُجمع أن يجتاح أوروبا حتى يصل إلى دار الخلافة بدمشق؟!

وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية... ويتجاوز إلى الشام دُروبه ودُروب الأندلس... ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية... مجاهدًا فيهم... مستلحمًا لهم... إلى أن يلحق بدار الخلافة!!!

الخليفة يتوجس من خطّة موسى بن نُصَير؟!

ونمي الخبر إلى الوليد... فاشتدّ قَلقُه بمكان المسلمين من دار الحرب...
ورأى أنّ ما همَّ به موسى غرَرٌ بالمسلمين...
فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف!!!
وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو!!!
وكتب له بذلك عهده!!!

موسى يتراجع نزولًا على أوامر الخليفة؟!

ففتَّ ذلك في عَزْم موسى...
وقَفَل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها...
وأنزل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوّها...
وأنزله بقُرْطبة فاتخذها دار إمارة...
واحتلَّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين...

الخليفة يُنَكِّل بالبطل موسى بن نُصَير؟!

وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال... على العَجَل والظَّهْر...

يقال: إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي...

وولّى على إفريقية ابنه عبدالله...

وقدم على سليمان بن عبد الملك... فسَخِطَه... ونَكَبَه!!!

وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته... وكان خيِّرًا فاضلًا... وافتتح في ولايته مدائن كثيرة!!!

وولي من بعده أيوبُ بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نُصَير... فولي عليها ستة أشهر...

ثم تتابعت وُلاةُ العرب على الأندلس... تارة من قبل الخليفة... وتارة من قبل عامله بالقَيروان...

وأثخنوا في أمم الكفر... وافتتحوا بَرْشلونة من جهة المشرق... وحصون قَشْتالة وبسائطها من جهة الجوف...

وانقرضت أمم القُوطِ... وعصفت ريح الاسلام بأمم الكفر من كل جهة...

وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلافٌ وتنازعٌ أوجَدَ للعدو بعض الكَرَّة... فرجع الإفرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد بَرْشلونة لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها...»!!!

طرائف...

روايات...

فتح الأندلس...؟!

وقيل: إن عبدالله بن مَرْوان أخا عبد الملك كان واليًا على مصر وإفريقية...

فبعث إليه ابنُ أخيه الوليدُ الخليفةُ يأمره بإرسال موسى بن نُصَير إلى إفريقية... وذلك سنة سبع وثمانين للهجرة... فامتثل أمره في ذلك...

وقيل: إن موسى بن نصير ولي إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين فقدمها ومعه جماعة من الجند...

فبلغه أن بأطراف البلاد من هو خارج عن الطاعة... فوجّه ولده عبدالله...

فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا...

ثم ولده مروان إلى جهة أخرى... فأتاه بمائة ألف رأس!!!

وقال الليث بن سعْد: بلغ الخمس ستين ألف رأس!!!

وقال الصَّدفي: لم يُسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نُصَير!!!

طارق واليًا على طَنْجة؟!

ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدي البربر عليها...

وكانت البلاد في قحْط شديد... فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البَيْن...

وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات... وفرق بينها وبين أولادها...

فوقع البكاء والصراخ والضجيج...

وأقام على ذلك إلى منتصف النهار...

ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟!

فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى...

فسُقوا حتى رَوُوا!!!

ثم خرج موسى غازيًا... وتتبع البربر... وقتل فيهم قتلًا ذريعًا... وسبى سَبْيًا عظيمًا...

وسار حتى انتهى إلى السُّوس الأدنى لا يدافعه أحد... فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا... وبَذَلوا له الطاعة فقبل منهم... وولّى عليهم واليًا...

واستعمل على طَنْجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربريّ...

ويقال: إنّه من الصَّدِف...

وترك عنده تسعة عشر ألفًا من البربر بالأسلحة والعُدَّة الكاملة...

وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم...

وترك موسى عندهم خلْقًا يسيرًا من العرب ليُعَلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام... ورجع إلى إفريقية...

ولم يبقَ بالبلاد مَنْ يُنازعه من البربر ولا من الروم!!!

موسى يأمر طارقًا ... بغَزْو الأندلس؟!

ولمّا استقرّت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجة يأمره بغَزْو بلاد الأندلس...

فغزاها في اثني عشر ألفًا من البربر خلا اثني عشر رجلًا...

وصعد على الجبل المنسوب إليه يوم الاثنين خامس رجب سنة اثنتين وتسعين...

وذكر عن طارق أنّه كان نائمًا في المركب وقت التعدية...

فرأى النبيّ (ﷺ) ... وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد!!!

لم يُهزم له جيشٌ قَطُّ؟!

وقيل: إن موسى ندم على تأخره... وعلم أن طارقًا إن فتح شيئًا نُسب الفتح إليه دونه...

فأخذ في جمع العساكر... وولّى على القيروان ابنه عبدالله...

وتبع طارقًا فلم يدركه إلا بعد الفتح!!!

وقال بعض العلماء: إن موسى بن نُصَير كان عاقلًا شجاعًا كريمًا نقيًّا لله تعالى...

ولم يُهزم له قطُّ جيشٌ!!!

وكان والده نصير على جيوش معاوية... ومنزلته لديه مكينة...

ولما خرج معاوية لِصفّين لم يخرج معه... فقال له: ما منعك من الخروج

معي ولي عندك يدٌ لم تكافئني عليها؟

فقال: لم يمكني أن أشكرك بكفري مَنْ هو أولى بشكري منك.

فقال: مَنْ هو؟

فقال: الله عزَّ وجلَّ!!!

فأطرق مليًّا ثم قال: أستغفر الله... ورضي عنه!!!

مَلِك اسبانيا في سبعين ألف فارس؟!

وقيل: كان لُذَريق ملك الأندلس استخلف عليها شخصًا يقال له تُدْمير: وإليه تُنسب تُدْمير بالأندلس فلمّا نزل طارق من الجبل كتب تُدْمير إلى لُذَريق: إنّه قد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أمِنَ السماء هم أم من الأرض!

فلمّا بلغ لُذَريق ذلك ـ وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغزوٍ له في بعض أعدائه ـ

رجع عن مقصده في سبعين ألف فارسٍ...

ومعه العَجَل تحمل الأموال والمتاع...

وهو على سريره بين دابتين...

وعليه مِظلّة مُطلة بالدرّ والياقوت والزبرجد!!!

طارق يخطب في جيشه؟!

فلمّا بلغ طارقًا دنوُّه قام في أصحابه... فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله... ثم حَثَّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم ثم قال:

« أيها الناس...

« أين المفر؟...

« البحر من ورائكم... والعدوُّ أمامكم...

« وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر...

« واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام في مأدُبة اللئام...

« وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته... وأقواتُه موفورة...

« وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم...

« ولا أقوات إلّا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم...

« وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم... وتعوّضت القلوب من رُعْبها منكم الجراءة عليكم...

« فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم... بمُناجزة هذا الطاغية...

« فقد ألقت به إليكم مدينَتُه الحصينة...

« وإنّ انتهاز الفُرْصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت...

« وإنّي لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنَجْوة...

« ولا حملتكم على خُطة أرخصُ متاع فيها النفوسُ إلا وأنا أبدأُ بنفسي...

« واعلموا أنّكم إن صَبرتم على الأشقِّ قليلًا... استمتعتم بالأرْفَهِ إلا طويلًا...

« فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي... فما حَظُّكم فيه بأوفى من حظّي...

« وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحورِ الحسان... من بنات اليونان... الرافلات في الدرّ والمَرْجان... والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان... المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان...

«وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُرْبانًا... ورضيكم لملوك هذه الجزيرة صهارًا وأختانًا... ثقةً منه بارتياحكم للطّعان... واستاحكم بمُجالدة الأبطال والفُرْسان...

«ليكون حظّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته... وإظهار دينه بهذه الجزيرة...

«وليكون مَغْنَمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم...

«والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين...

«واعلموا أنّي أوّل مجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه...

«وأنّي عند مُلْتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذَريق... فقاتِلُه إن شاء الله تعالى...

«فاحملوا معي...

«فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره... ولم يُعوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه...

«وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في غريمتي هذه... واحملوا بأنفسكم عليه...

«واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله...

«فإنهم بعده يُخْذلون» !!!

البطل طارق يقتل ملك اسبانيا أثناء المعركة؟!

فلمّا فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لُذَريق وأصحابه وما وعدهم من الخير الجزيل انبسَطَتْ نفوسُهم... وتحققت آمالهم... وهبّت رياحُ النصر عليهم...

وقالوا له: قد قطعنا الآمال ممّا يخالِفُ ما عزمتَ عليه... فاحضر إليه فإنّنا معك وبين يديك!!!

فركب وأصحابُه فباتوا ليلتهم في حرَس إلى الصبح...

فلمّا أصبح الفريقان تكتّبوا وعبّوا جيوشهم...

وحُمِلَ لُذَريق وهو على سريره...

وقد حُمل على رأسه رواقُ ديباج يظلّله...

وهو مُقبل في غابة من البنود والأعلام...

وبين يديه المقاتلة والسلاح!!!

وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزّرَدُ!!!

من فوق رؤوسهم العمائم البيض!!!

وبأيديهم القِسِيّ العربية!!!

وقد تَقلّدوا السيوف... واعتقلوا الرماح!!!

فلمّا نظر إليهم لذُريق حلف وقال: إن هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا... فداخَلَه منهم الرُّعْبُ!!!

كيف قَتَل طارقٌ الطاغيةَ لُذَريق؟!

فلمّا رأى طارق لُذَريق قال: هذا طاغية القوم...

فحمل... وحمل أصحابه معه!!!

فتفرقت المقاتلة من بين يدي لُذَريق...

فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه!!!

فقتله على سريره!!!

فلمّا رأى أصحابُه مصرعَ صاحبهم اقتحم الجيشان...

وكان النصر للمسلمين!!!

ولم تقف هزيمة العدو على موضع... بل كانوا يسلمون بلدًا بلدًا... ومَعْقِلًا معقلًا!!!

كلمة البطل الخالدة؟!

ولَمّا سمع موسى بن نُصَير بما حصل من النصرة لطارق عَبَر الجزيرة بمن معه...

ولحق بمولاه طارق...

فقال له: يا طارق... إنّه لن يجازيك الوليدُ بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس... فاستَبِحْهُ هنيئًا مريئًا!!!

فقال له طارق:

« أيها الأمير...

« والله لا أرجع عن قَصْدي هذا...

« ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي» .!!!

يعني البحر الشمالي...

ولم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جِليقِيّة وهي ساحل البحر المحيط!!!

وقيل: إن موسى بن نُصَير نَقَمَ على مولاه طارق إذ غزا بغير إذنه... وهَمَّ بقتله...

ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه...

فأطلقه وخرج معه إلى الشام!!!

أسطورة...
بيت الحِكَمة...
بالأندَلُس...؟!

وقولُ لُذَريق:

« إن هذه الصور هي التي رأيناها في بيت الحكمة الخ »

أشار به إلى بيت حِكْمة اليونان وكان من خبره - فيما حكى بعض علماء التاريخ -

أن اليونان، وهم الطائفة المشهورة بالحِكَم، كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر...

فلما ظهرت الفرس، واستولت على البلاد، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك... انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس... لكونها طرفًا في آخر العمارة، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك... ولا مَلَكها أحد من الملوك المعتبرة ولم تكُ عامرة...

وكان أوّلَ من عمّرَ فيها واختطّها أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام، فسميت باسمه...

ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكل طائر رأسه بالمشرق، والجنوب والشمال رجلاه، وما بينهما بطنه، والمغربُ ذَنَبُه، وكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخس أجزاء الطير...

وكانت اليونان لا ترى فناء الأمم بالحروب لما فيها من الأضرار

والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من أهم الأمور...

فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس...

فلما صار إليها أقبلوا على عمارتها، فشقوا الأنهار، وبنوا المعاقل، وغرسوا الجنات والكروم، وشيدوا الأمصار، وملؤوها حرثًا ونسْلًا وبنيانًا، فعظمت وطابت، حتى قال قائلهم لما رأى بَهْجتها: إن الطائر الذي صُوِّرت هذه العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاووسًا معظم جماله في ذنبه»!!!

«فاغتبط اليونان بالأندلس أتمَّ اغتباط، واتخذوا دار الحِكْمة والمُلْك بها طُلَيْطلة لأنها أوسط البلاد...

وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم...

فنظروا فإذا هو أنه لا يحسدهم على رَغَد العيش إلا أرباب الشّظف والشقاء والتعَب...

وهم يومئذ طائفتان: العرب، والبربر... فخافوهم على جزيرتهم العامرة...

فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طِلّسمًا... فرصدوا لذلك أرصادًا...

ولما كان البربر بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورًا، وكثر تحذرهم من نسبٍ أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم، وصار بعضهم مركّبًا في غرائزهم...

فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبُغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم...

فلم تجد أندلسيا إلا مبغضًا بربريًّا، وبالعكس، إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس لوجود بعض الأشياء عندهم وفَقْدها ببلاد البربر»!!!

وكان مَنْ تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذي قدمنا...

فاتفقوا وجعلوا الطّلْسمات في أوقات اختاروا أرصادها... وأودعوا تلك الطلسمات تابوتًا من الرخام، وتركوه في بيت بطُلَيْطلة، وركّبوا على ذلك الباب قُفْلًا تأكيدًا لحفظ ذلك البيت، فاستمر أمرهم على ذلك...

ولمّا حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها...

وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكًا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطُلَيْطلة...

وكان لُذَريقُ المذكور آنفًا هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم...

فلمّا اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأي منهم: قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلًا شيء... وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه... لأنه لم يُعمل عبثًا...

فقالوا: أيها الملك، صدقت، إنه لم يُصنع عبثًا، ولم يُقفل سُدًى، والرأي والمصلحة أن تلقى أنت أيضًا عليه قُفْلًا أسوة بمن تقدمك من الملوك، وكان آباؤك وأجدادك لم يُهْملوا هذا فلا تهمله، وسر سيرهم...

فقال لهم: إن نفسي تنازعني إلى فَتْحه، ولا بُدَّ لي منه...

فقالوا له: إن كنت تظن أن فيه مالًا فقدّره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولا نُحْدِث علينا بفتحه حادثًا لا نعرف عاقبته...

فأصرّ على ذلك!!!

وكان رجلًا مهيبًا، فلم يقدروا على مراجعته...

وأمر بفتح الأقفال!!!

وكان على كل قُفْل مفتاحه معلقًا...

فلمّا فتح الباب لم يرَ في البيت شيئًا إلا...

وفضّة... مُكَلَّلة بالجواهر... وعليها مكتوب:

« هذه مائدة سليمان بن داود عليها الصلاة والسلام » !!!

ورأى في البيت ذلك التابوت، وعليه قُفْل، ومفتاحه مُعَلّق ففتحه...

فلم يجد فيه سوى رَقّ... وفي جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير... على أشكال العرب، وعليهم الفراء، وهم مُعَمَّمون على ذوائب جُعْدٍ، ومن تحتهم الخيل العربية، وهم متقلدون السيوف المحلّاة، معتقلون الرماح!!!

فأمر بنشر ذلك الرَّقّ...

فإذا فيه:

« متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحِكْمة...

« دخل القومُ الذين صورهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس...

« وذَهَب مُلك مَنْ فيها من أيديهم...

« وبطلت حِكْمتهم » .!!!

فلما سمع لُذَريق ما في الرَّقّ... ندم على ما فعل!!!

وتحقق انقراض دولتهم...

فلم يلبث إلا قليلًا حتى سمع أن جيشًا وصل من المشرق جَهَّزه مَلِك العرب ليفتح بلاد الأندلس» !!!

* * *

أقول: هذه أسطورة بيت الحِكْمة... والله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك كله!!!

عبقرية . . .
طارق بن زياد . . .
قبل فتح الأندلس . . . ؟ !

قالوا:

استعمل أمير المؤمنين... الوليدُ بن عبد الملك... موسى بن نُصَير... وعقد له على إفريقية وما خَلْفها في سنة ثمان وثمانين...

فخرج إلى ذلك الوَجْه... في نفر قليل من المطوّعة...

فلما ورد مصر أخرج معه من جُنْدها بعثًا...

وأتى إفريقية عمله...

طارق يقاتل البربر... حتى بلغ طَنْجة؟!

فأخرج من أهلها معه ذوي القوّة والجلد...

وصَيّر على مقدّمته طارق بن زياد...

فلم يزل يقاتل البربر... ويَفُضّ جوعهم...

ويفتح بلادهم ومدائنهم... حتى بلغ طَنْجة...

وهي قصبة مُلك البربر... وأمّ مدائنهم...

فحصرها حتى افتتحها!!!

فاسلم أهلها!!!
وخطها قيروانًا للمسلمين!!!

★ ★ ★

أقول: هذا هو طارق بن زياد... قبل أن يغزو الأندلس...
يصول ويجول في المغرب حيث شاء... إلى أن بلغ طَنْجة على ساحل البحر!!!
هذه هي عبقرية طارق... قبل ان يدخل إلى الأندلس...
فلم يكن دخوله إلى الأندلس... وانتصاره الساحق فيها... جديدًا عليه...
وإنما سبقته شهرته في بلاد المغرب... وتحدَّث الناس: إنَّ طارقًا لا يُهزم قطّ!!!

★ ★ ★

عندما أحبّ المَلِك بارعة الجمال؟!

وقد كان من سِيَر أكابر العجم بالأندلس وقوّادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم إلى بلاد المِلِك الأكبر بطُلَيْطلة ليصيروا في خدمته، ويتأدّبوا بأدبه، وينالوا من كرامته[1]...

حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضًا... استئلافًا لآبائهم... وحَمَلَ

(١) المراد ان يتعلمن الاتيكيت الذي يؤهلهن للحياة في البلاط الملكي أو معاشرة طبقة الأمراء والنبلاء.

صَدُقاتهم... وتولّى تجهيزَ إناثهم إلى أزواجهن...

فاتفق أن فعل ذلك يُلْيان عامل لُذَريق على سَبْتة... وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس وأهلها على النصرانية...

ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه...

فلمّا صارت عن لُذَريق وقَعَت عينُه عليها...

فأعجبته وأحبها حبًّا شديدًا!!!

ولم يملك نفسه حتى استكرهها... وافتضَّها!!!

فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرًّا... بمكاتبة خفية...

فأحفظه شأنها جدًّا... واشتدت حمِّيته...

وقال: ودين المسيح لأزيلَنَّ سلطانه... ولأحفِرَنَّ تحت قدميه!!!

فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس بالذي سبق من قَدَر الله تعالى!!!

كيف فَتَح طارق . . .

مدائن الأندلس . . .

في عام واحد ؟!!

قال ابن الأثير:

ولما بلغ رُذريقَ غزو طارق بلاده عظم ذلك عليه... وكان غائبًا في غزاته...

فرجع منها وطارق قد دخل بلاده... فجمع له جمعًا يقال بلغ مائة ألف...

فلما بلغ طارقًا الخبرُ كتب إلى موسى يستمدّه ويخبره بما فتح وأنه زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به...

فبعث إليه بخمسة آلاف... فتكامل المسلمون اثني عشر ألفًا... ومعهم يوليان يدلّهم على عورة البلاد ويتجسّس لهم الأخبار...

معركة شَذُونة؟!

فأتاهم رُذريق في جنده...

فالتقوا على نهر تكّة من أعمال شَذُونة... لليلتين بقيتا من رمضان سنة اثنتين وتسعين...

واتصلت الحرب ثمانية أيام...

وكان على ميمنته وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك...

واتفقوا على الهزيمة بُغْضًا لرُذريق...

وقالوا: إنّ المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي المُلك لنا...

فانهزموا... وهزم الله رُذريق ومَن معه...

وغرق رُذريق في النهر[1]!!!

عين طارق؟!

وسار طارق إلى مدينة إستجة متبعًا لهم...

فلقيه أهلُها ومعهم من المنهزمين خلق كثير... فقاتلوه قتالًا شديدًا...

ثم انهزم أهلُ الأندلس... ولم يلقَ المسلمون بعدها حربًا مثلها...

ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة إستجة أربعة أميال فسُمّيت عين طارق...

---

(١) في رواية أن طارقًا قتله أثناء المعركة... واختلاف الروايات لا يقدم ولا يؤخر... الخلاصة أنه مات غريقًا أو قتيلًا.

توزيع الجيش إلى مدن الأندلس؟!

ولما سمعت القوط بهاتين الهزيمتين قذف الله في قلوبهم الرعب... فهربوا إلى طُلَيْطلة...

فلما دخلوا طليطلة وأخلوا مدائن الأندلس قال له يُولْيان: قد فرغتَ من الأندلس... ففرّق جيوشك وسِرْ أنتَ إلى طُلَيْطلة...

ففرّق جيوشه من مدينة إستجة...

وبعث جيشًا إلى قُرْطبة...

وجيشًا إلى غرناطة...

وجيشًا إلى مالقة...

وجيشًا إلى تُدْمير...

وسار هو ومعظم الجيش إلى جيان يريد طُلَيْطلة...

فلمّا بلغ طُلَيْطلة وجدها خاليةً وقد لحق مَن كان بها بمدينة خلف الجبل يقال لها ماية!!!

سقوط المدن سريعًا؟!

فأمّا الجيش الذي سار إلى قُرْطبة فإنهم دلّهم راعٍ على ثغرة في سورها فدخلوا منها البلد وملكوه!!!

وأمّا الذين قصدوا تدمير فلقيهم صاحبها... واسمه تُدْمير وبه سُمّيت وكان اسمها أريولة...

وكان معه جيش كثيف... فقاتلهم قتالًا شديدًا... ثم انهزم فقُتل من أصحابه خلقٌ كثير... فأمر تدمير النساء فلبسن السلاح... ثمّ صالح المسلمين عليها!!!

ثم فتح سائرُ الجيوش ما قصدوا إليه من البلاد!!!

فجّ طارق؟!

وأمّا طارق فلمّا رأى طُلَيْطلة فارغة ضمّ إليها اليهود... وترك معهم رجالًا من أصحابه...

وسار هو إلى وادي الحجارة... فقطع الجبل من فجّ فيه فسُمّي بفجّ طارق!!!

مائدة سليمان؟!

وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمّى مدينة المائدة...

وفيها وجد مائدة سليمان بن داود، عليه السلام...

وهي من زبرجد خضر... حافاتها وأرجلها منها مكلّلة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك...

وكان لها ثلاثمائة وستّون رِجْلًا...

ثم مضى إلى مدينة ماية فغنم منها...

ورجع إلى طُلَيْطلة في سنة ثلاث وتسعين...

ووافته جيوشه التي وجّهها من إستجة بعد فراغهم من فتح تلك المدن التي سيّرهم إليها!!!

★ ★ ★

أقول: شيء أشبه بالأساطير!!!

أيُعقل هذا؟!... جيش من اثني عشر ألفًا يقهر جيشًا من مائة ألف... ثم يسيح فاتحًا إلى جميع مدن الأندلس فلا تستعصي واحدة منها عليه؟!!

ويحدث كل هذا في عام واحد؟!!

عام واحد... يلتهم طارق فيه دولة عظمى بأكملها!!!

هل هي أسطورة... أم خيال... أم فيلم سينمائي يعتمد على الخِدَع السينمائية؟!!

كلا... ليس شيئًا من هذا كله...

وإنما:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ...

﴿فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ...

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ...

﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾!!!

ها هنا السرّ!!!

سرّ هؤلاء العظماء

هؤلاء الاثنا عشر ألفًا الذين حملوا الإسلام... حملوا لا إله إلا الله... إلى أوروبا... إلى الأندلس!!!

قال بعضهم: وكانت إقامته في الفتوح وتدويخ البلاد إلى أن وصل سيّده موسى بن نُصَير سنة!!!

ومُوسى بن نُصَير . . .

يغزو الأندلس . . .

في ثمانية عشر ألفًا . . .؟!

ولمّا بلغ موسى بن نُصَير... ما صنعه طارق بن زياد...

وما أتيح له من الفتوح حَسَده... وتهيّأ للمسير إلى الأندلس...

فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم...

وقيل: إنهم كانوا ثمانية عشر ألفًا... وقيل: أكثر...

فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين...

وتنكب الجبل الذي حلّه طارق!!!

ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى...

فلمّا احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك طريق طارق... ولا أقفو أثرة!!!

فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يُلْيان: نحن نسلك بك طريقًا هو أشرف من طريقه... وندلك على مدائن هي أعظم خطرًا، وأعظم خطبًا وأوسع غُنْمًا من مدائنه، لم تُفْتَح بعد، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى...

فملئ سرورًا... وكان شفوف طارق قد غمّه...

فساروا به في جانب ساحل شَذُونة فافتتحها عَنْوة، وألقوا بأيديهم إليه!!!

فتح قَرْمُونة؟!

ثم سار إلى مدينة قَرْمُونة، وليس بالأندلس أحصَنُ منها، ولا أبعد على من يَرُومها بحصار أو قتال...

فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان...

دخلوا إليهم كأنّهم فُلّال...

وطرقهم موسى بخيله ليلًا...

ففتحوا لهم الباب!!!

وأوقعوا بالحراس، فمُلِكت المدينة!!!

سقوط إشبيلية؟!

ومضى موسى إلى إشبيلية جارتها فحاصرها...

وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا، وأعجبها بنيانًا، وأكثرها آثارًا...

وكانت دارَ المُلْك قبل القوطيين...

فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طُلَيْطلة...

وبقي رؤساء الدين فيها أعني إشبيلية...

فامتنعت أشهرًا على موسى... ثم فتحها الله عليه...

فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجَة...

فضم موسى يهودَها إلى القصبة... وخلَّف بها رجالًا...

ومضى من إشبيلية إلى مدينة ماردة...

سقوط ماردة؟!

وكانت أيضًا دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر... وهي ذات عزّ ومَنَعة، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر، فائقة الوصف، فحاصرها أيضًا...

فأذعنوا عند ذلك... وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال الصلى وأموال الهاربين إلى جِليقيّة وأموال الكنائس وحليها للمسلمين...

ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها!!!

عبد العزيز بن موسى يعيد فتح إشبيلية؟!

ثم إن عجم إشبيلية انتقضوا على المسلمين... واجتمعوا من مدينتي باجَة ولَبْلَة إليهم... فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلًا...

وأتى فَلّهم الأمير موسى وهو بماردَة... فلمّا أن فتحها وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم... ففتح إشبيلية وقتل أهلها... ونهض إلى لَبْلَة ففتحها!!!

واستقامت الأمور فيما هنالك وعلا الإسلام... وأقام عبد العزيز بإشبيلية...

وتوجّه الأمير موسى من ماردَة في عقب شوال يريد طُلَيْطلة!!!

طارق يستقبل موسى؟!

وبلغ طارقًا خبرُه...

فاستقبله في وجوه الناس...

فلقيه في موضع من كورة طَلَبِيرة...

وقيل: إن موسى تقدّم من ماردة فدخل جِلّيقية من فجّ نُسب إليه... فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب مقدمته بمدينة إِشْتُرْقَةَ...

فغض منه علانية!!!

وأظهر ما بنفسه عليه من حقد!!!

وقيل: لمّا وقعت عينُه عليه نزل إليه إعظامًا له...

فَقَنّعه موسى بالسّوْط!!!

ووبّخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه!!!

موسى يُطالب طارقًا بالمائدة؟!

وساروا إلى طُلَيْطلة...

فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك...

واستعجله بالمائدة... فأتاه بها وقد خلع من أرجها رِجْلًا وخبأه عنده...

فسأله موسى عنه... فقال: لا علم لي به... وهكذا أصبتها!!!

فأمر موسى فجعل لها رِجْل من ذهب جاء بعيدَ الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمّل... ولم يقدر على أحسن منه... فأخلّ بها!!!

وقيل: غزا موسى بن نُصَير في المحرم سنة ثلاث وتسعين... فأتى طَنْجة ثم عبر إلى الأندلس... فأداخَها... لا يأتي على مدينة إلا فتحها ونزل أهلها

على حُكْمه... ثم سار إلى قُرْطبة... ثم قفل عن الأندلس سنة أربع وتسعين، فأتى إفريقية... وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤمّ الوليد بن عبد الملك... يجرّ الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس!!!

هذه مائدة الذهب . . .

التي غنمها طارق . . .

بطُلَيْطلة . . . ؟!

قالوا:

وهذه المائدة المنوّه باسمها... المنسوبة إلى سليمان النبيّ عليه الصلاة والسلام...

لم تكن له فيما يزعم رواة العجم...

وإنما أصلها أن العجم في أيّام مُلكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس...

فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة...

تحمل الشّمامسة والقُسُوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيّام المناسك...

ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها...

فكانت تلك المائدة بطُلَيْطلة مما صيغ في هذه السبيل...

وتأنقت الأملاك في تفخيمها... يزيد الآخر منهم فيها على الأوّل...

حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات... وطار الذكر مَطاره عنها...

وكانت مَصُوغة من خالص الذهب!!!

مُرَصَّعة بفاخر الدرِّ والياقوت والزمرد!!!

لم تر الأعين مثلها!!!

وبُولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة!!!

وأنّه لا ينبغي أن تكون بموضع آلةُ جمالٍ أو متاعُ مباهاةٍ إلا دون ما يكون فيها!!!

وكانت توضع على مذبح كنيسة طُلَيْطلة...

فأصابها المسلمون هناك!!!

وطار النبأ الفخم عنها!!!

وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذي فعله من غيرته على ما تهيّأ له، ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه...

فاستظهر بانتزاع رجْل من أرْجُل هذه المائدة خبأه عنده...

فكان من فلّجه به على موسى عدوه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور!!!

وقال بعض المؤرخين:

إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة... وكان عليها طَوْق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد... وكلها مكلّلة بالجواهر!!!

وقيل: وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رِجْلًا...

وكانت توضع في كنيسة طُلَيْطلة فأصابها طارق!!!

طارق . . .
يقتحم . . .
جنوب فرنسا ؟!

قالوا:

ثم إن موسى اصطلح مع طارق...

وأظهر الرضى عنه...

وأقرّه على مقدمته على رسمه...

وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه!!!

وسار موسى خلفه في جيوشه!!!

فارتقى إلى الثغر الأعلى...

وافتتح سَرَقُسْطة وأعمالها...

وأوغل في البلاد...

وطارق أمامه... لا... يمرّان بموضع إلا فتح عليهما!!!

وغنّمهما الله تعالى ما فيه!!!

وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح!!!

وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله!!!

ويكمل ابتداءه... ويوثّق للناس ما عاهدوه عليه...

فلما صفا القطر كلّه... وطامن نفوس مَن أقام على سلمه... ووطّأ لأقدام المسلمين في الحلول به... أقام لتمييز ذلك وقتًا...

طارق يبلغ جنوب فرنسا؟!

وأمضى المسلمين إلى إفرنجة... ففتحوا... وغنموا... وسلموا... وعلوا... وأوغلوا...

حتى انتهوا إلى وادي رُودنة (تقابل نهر الرون)... فكان أقصى أثر العرب... ومنتهى موطئهم من أرض العجم...

وقد دَوَّخت بعوث طارق وسَراياه بلد إفرنجة...

فملكت مدينتي بَرْشِلُونة... وأربونة... وصخرة أبنيون (إلى الشمال من آرل على نهر الرون)... وحصن لوذون على وادي رُودنة...

فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدًّا...

ولمّا أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارلُة (شارل) ملك الإفرنجة بالأرض الكبيرة... وانزعج لانبساطهم... فحشد لهم... وخامره ذعر وخوف مُردٍ للمسلمين... فزال عنهم راحلًا إلى بلده... وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس (أي فرنسا)!!!

مغانم . . .
الأندلس . . . ؟!

وقال الليث بن سَعْد ... بعد ذكره أن طارقاً أصاب بالأندلس مغانم كثيرة من الذهب والفضة:

إن كانت الطِّنفِسَة لتُوجد منسوجة بقضبان الذهب... وتُنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ...

وكان البربر ربما وجدوها فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس فيضربوا به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر لنفسه ... ويسير معهم جماعة والناس مشتغلون بغير ذلك ...

وفي بعض كتب التاريخ أنّه وُجد في طليطلة حين فتحت من الذخائر والأموال ما لا يُحصى ...

فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ...

ووُجد فيها ألف سيف ملوكي!!!

ووُجد فيها من الدر والياقوت أكيال!!!

ومن أواني الذهب والفضة ما لا يُحيط به وصف!!!

ومائدة سليمان وكانت مَصوغة من الذهب الخالص!!!

وكانت توضع في كنيسة طُلَيْطلة ... فأصابها طارق!!!

وهي من أجلّ ما غُنم بالأندلس ... على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوعة الأجناس؟!!

فكرة عن . . .

ملوك الأندلس . . .

من لدن الفتح . . ؟!

فترة الأمراء؟!

طارق بن زياد... مولى موسى بن نُصير... ثمّ الأمير موسى بن نُصير... وكلاهما لم يتخذ سريراً[1] للسلطنة...

ثمّ عبد العزيز بن موسى بن نصير... وسريره إشبيلية...

ثم أيوب بن حبيب اللخمي... وسريره قُرْطبة...

ثم الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي...

ثم السّمْح بن مالك الخَوْلاني... الخ...

وعددهم عشرون... ولم يتعدّوا في السّمة لفظ الأمير...

وقيل مدتهم منذ تاريخ الفتح من لُذَريق سلطان الأندلس النصراني ـ وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين ـ الى يوم تغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطُبة ـ وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ـ ست وأربعون سنة وخمسة أيام..

* * *

(١) اي عاصمة.

حكام بني أميّة:

ثم كانت دولة بني أميّة:
أوّلهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك...
ثم ابنه هشام الرضى...
ثم ابنه الحكم بن هشام... الخ

* * *

ملوك الطوائف ومَن بعدهم:

واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة... وابن عبّاد بإشبيلية وغيرها...
ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد...

* * *

انتقاض حال الأندلس:

وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع في الكفّار شفت الصدور من أمراضها... ووفت النفوس بأغراضها... واستولت

على ما كان لملّة الكفر من جواهرها وأعراضها...

ثم وقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف...

فعَصَفَتْ ريحُ العدوّ...

فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى بن نُصَير... وطارقًا... ومن بعدهما من ملوك الأندلس الذين راعت العدوَّ الكافر منهم طوارق!!!

صراع...

بين طارق...

وموسى بن نُصَيْر

أمام الخليفة...؟!

ولمّا قَفَلَ موسى بن نُصَيْر إلى المشرق وأصحابه...

سأل مغيثًا أن يسلم إليه العِلْجَ صاحب قُرْطُبَة[1] الذي كان في إساره...

فامتنع عليه...

وقال: لا يؤديه للخليفة سواي...

وكان يُدلُّ بولائه من الوليد...

فهجم عليه موسى فانتزعه منه...

فقيل له: إن سرت به حيًّا معك ادعاه مغيث... والعِلْج لا ينكر قوله... ولكن اضرب عنقه...

ففعل!!!... فاضطغنها عليه مغيث... وصار إلْبًا مع طارق الساعي عليه...

واستخلف موسى على طَنْجَة وما يليها من المغرب ابنَه الآخَر عبد الملك وقد كان - كما مرّ - استخلف بإفريقية أكبرَ أولاده عبد الله... فصار جميع الأندلس والمغرب بيد أولاده...

وابنُه عبد الله الذي خلفه بإفريقية هو الفاتح لجزيرة مَيُورقة...

---

(١) هو مَلِك قرطبة وقع أسيرًا في يد فاتحها مغيث...

وسار موسى فورد الشام...

واختلف الناس: هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده؟...

فمن يقول بالثاني قال:

قدم على سليان حين استُخلِف... وكان منحرفًا عنه...

فسبق إليه طارق... ومغيث... بالشكية منه!!!

ورَمَياه بالخيانة!!!

وأخبراه بما صنع بها من خبر المائدة... والعِلْج (الرجل) صاحب قرطبة (ملك قرطبة)[1]...

وقالا له: إنّه قد غَلَّ جوهرًا عظيم القدر أصابه... لم تحوِ الملوك من بعد فتح فارس مثلَه!!!

فلّما وافى سليان وجده ضغينًا عليه!!!

فأغلظ له... واستقبله بالتأنيب والتوبيخ!!!

فاعتذر له ببعض العذر...

وسأله عن المائدة...

فأحضَرَها!!!

فقال له: زعم طارق أنّه الذي أصابها دونك؟!

قال: لا... وما رآها قَطٌّ إلا عندي!!!

فقال طارق: فليسأله أمير المؤمنين عن الرِّجْل التي تنقصها؟

فسأله...

فقال: هكذا أصبتها... وعوضتها رِجْلًا صنعتها لها!!!

فحوَّل طارق يده إلى قبائه... فأخرج الرِّجْل!!!

فعلم سليان صدقه وكذب موسى!!!

---

(١) قبض عليه مغيث اثناء فتح قرطبة ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره... وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد.

فحقّق جميعَ ما رُمي به عنده...

وعزله عن جميع أعماله!!!

وأقصاه وحبسه!!!

وأمر بتقصّي حسابه!!!

فأغرمه غرمًا عظيمًا كشفه فيه... حتى اضطره إلى أن سأل العرب مَعُونَته!!!

فيقال: إن لخمًا حملت عنه في أعطيتها تسعين ألفًا ذهبًا!!!

وقيل: حَمَّلَه سليمان غُرْم مائتي ألف... فأدى مائة ألف... وعجز...

فاستجار بيزيد بن المهلب... أثير سليمان...

فوهبه إيّاه... إلا أنّه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية!!!

* * *

ما هذا؟!

لا تعجب... هذه هي السياسة... اللعبة الصعبة!!!

كل شيء فيها جائز!!!

قالوا لطارق:

أنت أمير نفسك...

أم فوقك أمير...؟!

قالوا إن آخر ملوك الأندلس الذين تلّتهم العربُ غيطشة...

وأنه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للمُلْك...

فضبطت أمُّهُم عليهم مُلْك والدهم بطُلَيْطلة...

وانحرف لُذَريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم... فصار بقُرْطبة...

« فلمّا اقتحم طارق الأندلس نفر اليه لُذَريق واستنفر اليه أجناد أهل الأندلس... وكتب إلى أولاد غيطشة - وقد ترعرعوا وركبوا الخيل واتخذوا الرجال - يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب... ويحذرهم من القعود عنه... ويحضهم على أن يكونوا على عددهم يدًا واحدة...

« فلم يجدوا بدًّا ، وحَشَدوا ، وقدموا عليه بقُرْطبة...

« ومَضوْا معه وهم مُرْصِدون لمكروهه »...

* * *

اقول:

وكانت المعركة الفاصلة... حيث زحف طارق... وزحف اليه

لُذَرِيق على رأس مائة ألف ...

فإذا كان من غرماء لُذَرِيق... ابناء الملك غيطشة... الذين سَلب لُذريق مُلْكهم واستولى عليه بالقوة؟!

« فتلاقوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا، وليس من أهله، وإنما كان من أتباعنا، فلسنا نعدم من سيرته خبالا في أمرنا... وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا، وإنّما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنّا... فهلمّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إيّاه... فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في مُلكنا مَن يستحقّه...

« فأجْمَعوا على ذلك...

« وكان لُذَرِيق وَلّى ميمنته أحد ابني غيطشة... وميسرته الآخر... فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة... وأداهما إلى ذلك طمع رجوع مُلْك والدهما إليهما...

« ولمّا تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلُذَرِيق...

« وأرسلوا الى طارق يُعْلمونه أن لُذَرِيق كان تابعًا وخادمًا لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مَهْلكه وأنهم غير تاركي حقهم لديه...

« ويسألونه الأمان على أن يميلوا اليه عند اللقاء فيمن تبعهم!!!

« وأن يسلّم إليهم إذا ظفر ضياع والدهم بالأندلس كلّها...

« وكانت ثلاثة آلاف ضَيْعة نفائس مختارة!!!

« وهي التي سميت بد ذلك صفايا الملوك...

« فأجابهم الى ذلك...

« وعاقدهم عليه...

« فالتقى الفريقان من الغَدِ... فانحاز الأولاد الى طارق...

« فكان ذلك أقوى أسباب الفتح...

« وكان الالتقاء على وادي لَكَّة ... من كورة شَذُونة ...

« فهزم الله الطاغية لُذَريق وجوعه ... »

وقالوا :

« وأما أولاد غيطشة فإنهم لما صاروا إلى طارق بالأمان ...

« وكانوا سبب الفتح حسبما تقدم ...

« قالوا لطارق: أنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟

« فقال: بل على رأسي أمير ... وفوق ذلك الأمير أمير عظيم ...

« فاستأذنوه باللّحاق بموسى بن نُصَير بإفريقية ليؤكّد سببهم به ... وسألوه الكتاب اليه بشأنهم معه ... وما أعطاهم من عهده ...

« ففعل ...

« وساروا نحو موسى ... فَتَلَقَّوْه في انحداره الى الأندلس بالقرب من بلاد البربر ... وعرَّفوه بشأنهم ...

« ووقف على ما خاطبه به طارق في ذِمّتهم وسابقتهم ...

« فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ...

« وكتب اليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم ...

« فلمَّا وصلوا إلى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم!!!

« وعقد لكل واحد منهم سجلًا ...

« وجعل لهم أن لا يقوموا لداخل عليهم ...

« فقدموا الأندلس ...

« وحازوا ضِياعَ والدهم أجمع ...

« واقتسموها على موافقة منهم ...

فصار منها لكبيرهم الْمُنذ ألف ضيعة في غرب الأندلس ... فسكن من أجلها إشبيلية مقتربًا منها ...

«وصار لأرطباش ألف ضيعة... وهو تلوه في السن... وضياعه في موسطة الأندلس... فسكن من أجلها قُرْطُبة...

«وصار لثالثهم وَقِلَة ألف ضيعة في شرقي الأندلس... وجهة الثغر... فسكن من أجلها مدينة طُلَيْطلة...

«فكانوا على هذه الحال صَدْر الدولة العربية...» الخ...

★ ★ ★

اقول: هكذا وَفّى طارق ما وعد أولاد مَلِك أسبانيا السابق.... فرفعهم الى موسى بن نُصَير... الذي أرسلهم بدوره الى الخليفة... الذي أمضى لهم ما عاهدهم عليه طارق قبل المعركة!!!

وصف المعركة الخالدة . . .

التي انتصر فيها . . .

طارق بن زياد . . .

نصره الساحق . . ؟!

وكان الالتقاء على وادي لَكّة... من كورة شَذُونة...

« وقيل:

« نزل طارق بالمسلمين قريبًا من عسكر لُذَريق... منسلخَ شهر رمضان سنة ٩٢...

« فوَّجه لُذَريق عِلْجًا (رجلا) من أصحابه قد عَرَف نَجْدَته ووثق ببأسه ليشرف على عسكر طارق... فيحزِرَ عددهم... ويعاين هيئاتهم ومراكبهم...

« فأقبل ذلك العِلْج حتى طلع على العسكر...

« ثم شدّ في وجوه مَن استشرفه من المسلمين...

« فوثبوا إليه... فولّى منصرفًا راكضًا...

« وفاتهم بسَبْق فرسه!!!

« فقال العلج للذُريق: أتتك الصُّوَر التي كشف لك عنها التابوت... فخذ على نفسك...

« فقد جاءك منهم مَن لا يريد إلا الموت... أو إصابة ما تحت قدميك...

« قد حرّقوا مراكبهم إياسًا لأنفسهم من التعلّق بها!!!

« وصفوا في السهل مُوَطِّنين أنفُسَهم على الثبات...
« إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب!!!
« فرُعب وتضاعف جزعه!!!
« والتقى العسكران بالبحيرة...
« واقتتلوا قتالًا شديدًا...
« إلى أن انهزمتْ ميمنة لُذَريق وميسرته... انهزم بها أبناء غيطشة...
« وثبت القلبُ بعدهما قليلًا وفيه لُذَريق...
« فعَذَّر أهلُه بشيء من قتال...
« ثم انهزموا... ولُذَريق أمامهم...
« فاستمرّت هزيمتهم...
« وأذرع المسلمون القتل فيهم...
« وخفي أثر لُذَريق فلا يُدْرى أمره...»!!!

وقيل:

« كانت الملاقاة يوم الأحد لليتين بقيتا من شهر رمضان...
« فاتصلت الحربُ بينهم الى يوم الأحد لخمس خَلَوْن من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام...
« ثم هزم الله المشركين...
« فقُتِل منهم خَلْق عظيم...
« أقامت عظامُهم بعد ذلك بدَهْر طويل ملبسة لتلك الأرض...
« قالوا: وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلّ قدْرُه...
« فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم...
« ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة...

« ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس...
« فجمع طارق الفَيْء وخمّسه...
« ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين... سوى العبيد والأتباع...
« وتسامع الناس من أهل برّ العُدْوَة بالفتح على طارق بالأندلس... وسعة المغانم فيها...
« فأقبلوا نحوه من كل وَجْه...
« وخرّقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب...
« فلحقوا بطارق!!!
« وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع...
« وتهاربُوا من السهل ولحقوا بالجبال!!!
« ثم أقبل طارقٌ حتى نزل بأهل مدينة شَذُونة... فامتنعوا عليه... فشدّ الحصر عليهم... فتهيأ له فتحها عنوة... فحاز منها غنائم... ثم مضى إلى موروو...» الخ.

* * *

أقول: هذه خطوط عريضة عن معركة الأندلس الكبرى... التي هزَم فيها طارق مائة ألف أو يزيدون... وقتل فيها مَلِك إسبانيا بضربة سيف!!!

الأدب...
المنسوب...
إلى طارق[1]...؟!

(١) عن كتاب «الأدب الأندلسي» للدكتور أحمد هيكل... مختصرًا.

وربما كان من المكمل للحديث عن الأدب في فترة الولاة، أن نعرض لنصين نسبا إلى طارق بن زياد، أحدهما أبيات من الشعر يقول فيها:

ركبنا سفينًا بالمجاز مقيّرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسًا وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

وثاني النصين خطبة قيل إنه ألقاها في جنوده يحمسهم على القتال بعد أن نزل بهم بلاد الأندلس، وبعد أن أحرق السفن التي حملته وجنوده من شمال إفريقيا إلى جنوب إسبانيا.

ونص تلك الخطبة هو: «أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا، ذهب ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة؛ ولا حملتكم على خطة ـ أرخص

متاع فيها النفوس - أبرأ منها بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالألذ الأرفه طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفر من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون فتحها خالصًا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذخرًا في الدارين. واعلموا أني أول مجيب لما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي، فإن هلكت بعده، فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخذلون»[1].

ولو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد، لكانا أول أدب عربي تردد في الأندلس، ولكانا في طليعة النصوص التي تعتز بها فترة الولاة. ولكن نسبة هذين النصين إلى طارق يحف بها كثير من الشك؛ وذلك لعدة أسباب، منها أن طارق بن زياد كان بربريًا مولى لموسى بن نصير[2]؛ ومن شأنه أن يكون حديث عهد بالعربية، وألا يستطيع الخطابة والشعر بلغة هو حديث عهد بها. فقد ولى موسى بن نصير قيادة المغرب على الأرجح سنة ٨٩ هـ أيام الوليد بن عبد الملك، ومن المعقول أن تكون هذه السنة هي مبدأ ارتباط طارق

---

(١) المقري: نفح ج ١ ص ١١٢.

(٢) وقيل أصله فارسي. والراجح كونه من البربر. انظر: البيان المقرب ج ١ ص ٧.

بموسى، وربما الإسلام والعربية أيضًا. فإذا كان فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ، فإن عمر طارق في الإسلام واتصاله بالعربية يكون فترة وجيزة يستبعد معها أن يجيد طارق لغة العرب إجادة تسمح له بنظم الشعر وإلقاء الخطب[١].

ومن أسباب الشك في هذا الأدب المنسوب إلى طارق، أن المصادر الأولى التي سجلت حوادث الفتح، قد خلت تماما من أي حديث عن هذا الأدب، مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها في باب الأساطير. وقد استوت في ذلك الصمت عن هذا الأدب، المصادر الأندلسية[٢] والمشرقية[٣] جميعًا. ولم يرد هذا الأدب المنسوب إلى طارق إلا في بعض المصادر المتأخرة كثيرًا عن فترة الفتح، مثل نفح الطيب للمقري[٤] الذي أورد الخطبة دون أن يخبرنا عن المصدر الذي نقلها عنه، وأورد الشعر معتمدًا - كما قال - على كتاب المسهب والمُغرب، وهما بدورهما متأخران كثيرًا عن فترة الفتح[٥].

ومن أسباب الشك في نسبة الخطبة بخاصة إلى طارق، ذلك الأسلوب التي جاءت به؛ فهو أسلوب لم يكن معروفًا في النثر العربي خلال الفترة التي تعزى إليها تلك الخطبة. فالسجع الكثير والمحسنات المتكلفة قد عاشت في عصر متأخر كثيرًا عن القرن الأول الذي قالوا إن ابن زياد قال خطبته فيه، والمعروف أن الخطابة في تلك الفترة كانت كنماذج الحجاج وزياد وقَطري

---

(١) وحتى ولو فرضنا أن طارقًا كان على صلة بالاسلام والعربية قبل ولاية موسى، لأن له أبوين في الاسلام كما يذكر ابن عذاري في البيان المغرب - فان ذلك لا يتيح له معرفة العربية إلى درجة قول الشعر وإلقاء الخطب بها، لأن أحوال المغرب في تلك الآونة لم تكن تسمح بتأدب.

(٢) مثل: أخبار مجموعة لمؤلف مجهول وتاريخ إفتتاح الأندلس لابن القوطية.

(٣) مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البلدان للبلاذري.

(٤) وهو مغربي من علماء القرن الحادي عشر هـ.

(٥) المسهب للحجاري. والمغرب لابن سعيد. وهما أندلسيان عاش أولهما في القرن السادس الهجري وعاش الثاني في القرن السابع.

وغيرهم ممن عرفهم العصر الأموي. والخطبة التي بين أيدينا ـ منسوبة إلى طارق ـ بعيدة كل البعد عن خصائص الخطابة المعروفة حينذاك، وإنما هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسي، وربما إلى ما بعد ذلك حيث شاع السجع وكثرت المحسنات.

وشيء آخر قد جاء في نص الخطبة يبعد أن يقوله طارق. وهو قوله لجنده ـ وكانوا كما نعرف من البربر ـ «وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عربانًا»، فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر، وجنوده كانوا يعرفون أنهم ليسوا عربانًا، ومن هذا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذي لا يقوله إلا غير عالم بحقيقة جيش طارق.

لهذا كله يرجح أن يكون هذا الأدب المنسوب إلى طارق من وضع بعض الرواة المتأخرين كثيرًا عن فترة الفتح، والمتأثرين كثيرًا بأسلوب أواخر العصر العباسي وربما بالعصر المملوكي. وقد كان الرواة والقصاص يضعون كثيرًا، مازجين التاريخ بالقصص والأساطير، وقد أحاطوا الفتح الأندلسي خاصة بكثير من أقاصيصهم وأساطيرهم. فأغلب الظن أن هذا الأدب المنسوب إلى طارق بعض ما وضع هؤلاء الوضاعون[1].

حقيقة قد يكون طارق خطب جنوده محمّسًا مشجعًا، وقد يكون تغنى انتصاراته مفاخرًا مباهيًا. ولكن المعقول أن يكون ذلك بلغته البربرية التي كان يجيدها والتي كان يفهمها جنوده.

---

(١) أما مسألة إحراق السفن فلم ترد إلا في: نزهة المشتاق للإدريسي (ص ١٧٨) وهو من مؤلفي القرن الخامس الهجري. وكل المراجع السابقة قد سكتت عن تلك الحادثة تمامًا. ولكن من الطريف أن فاتحًا حديثًا عمل نفس العمل الذي ينسب إلى طارق، وأكثر من ذلك أنه إسباني. فعندما أشرف هرناندو كروتيس على شاطئ المكسيك فاتحًا سنة ١٥١٩ أمر بإحراق سفنه التي قدم عليها جيشه من إسبانيا. والمعقول أن يكون هذا القائد قد تأثر بما نسب الى طارق قبل ذلك بنحو ثمانية قرون.

على أن الشك في نسبة هذا الأدب إلى طارق لن يغض من عظمة القائد ولا من جمال الأدب ودلالته؛ فلن يعيب القائد البربري العظيم ألا يخطب أو يشعر بالعربية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ البربر في الإسلام. ولن يعيب هذا الأدب ألا يقوله طارق، وأن يقوله متأخر صوّر به - على قدر خياله - ما كان من أمر القائد البربري وجيشه حينذاك.

وربما أفاد نفي نسبة الخطبة إلى طارق، في رد زعم من اتهموا جيوش الإسلام الفاتحة بالطمع والرغبة في السلب والنهب، لا في نشر العقيدة والتمكين للدين الذي به يدينون. فالمسئول عن الأطماع التي في هذه الخطبة، هو خيال مؤلفها؛ فمضمونها لا يعدو أن يكون خيالا لمؤلف أديب لا فكرة لقائد مسلم.»

* * *

أقول:

الراجح عندي أنَّ طارقًا خطب جنوده خطبة هي أروع مما سجله الرواة...

خطبة تنبع من قلب قائد عظيم... يقاتل في سبيل الله...

لقد كانت شيئًا أعلى وأغلى من كل مقال!!!

هل كان من الذين . . .

فتحوا الأندلس . . .

أحد من الصحابة . . .

أو التابعين . . . ؟!

وركب موسى البحر إلى المشرق... بذي حجة سنة خمس وتسعين... وطارق معه... متجها الى دمشق...

وكان مُقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة...

وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر...

وحمل موسى الغنائم والسّبي... وهو ثلاثون ألف رأس... والمائدة... ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يُقْدَر قدره...

وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته... أسيفٌ على ما لحقه من الإزعاج...

وكان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفرنجة... ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام... مؤملًا أن يتخذ مُخْتَرَقه بتلك الأرض طريقًا مَهْيَعًا يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحرًا!!!

واحد من أصاغر الصحابة؟!

وزعم ابن حبيب:

أنّه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة... وهو المنيذر...

وجاء في «نفح الطيب»:

«فمن الداخلين إلى الأندلس المنَيْذر الإفريقي...

«له صحبة... وسكن إفريقية... ودخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب...

«وأنّه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر غازيا...»

* * *

ومن التابعين:

موسى بن نُصَيْر؟!

«ومن التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نُصَيْر... وقد سبق من الكلام عليه ما فيه كفاية...

حنش الصنعاني؟!

« وغزا الأندلس مع موسى بن نُصَير...

« وتوفي بإفريقية سنة مائة...

« وهو الذي أشرف على قُرْطُبة من الفج المسمى بفج المائدة... وأذَّنَ... وذلك في غير وقت الأذان... فقال له أصحابه في ذلك، فقال: إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة...

« وقيل: كان بسَرَقُسطة... وأنه هو الذي أسس جامعها... وبها مات...»

ابو عبد الله عليّ بن رباح اللخمي؟!

« من الداخلين من التابعين للأندلس...

« ولد سنة خمس عشرة عام اليَرْمُوك...

« وكانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة...»

أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المَعافري؟!

« من التابعين الداخلين للأندلس...

« توفي بإفريقية سنة مائة...

« وكان رجلا صالحًا فاضلا...

« ويذكر اهلُ قرطبة أنه توفي بقُرْطبة...»

. ومن الداخلين من التابعين:

حِبّان بن أبي جبلة؟!

«أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يُفَقِّهون أهل إفريقية منهم حِبَّان بن أبي جبلة...

«توفّي بإفريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة...

«غزا مع موسى بن نُصَيْر حين فتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له قرْقَشُونة فتوفي به...»

ومن الداخلين من التابعين:

المغيرة بن أبي بردة؟!

«دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر... فكان موسى بن نصير يخرجه على العساكر...»

ومن التابعين:

حَيْوَة بن رجاء التميمي؟!

«دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه...»

ومنهم:

عياض بن عقبة الفهري...

ومنهم عبد الله بن شماسة الفهري...

ومنهم الجبار بن أبي سلمة...
ومنهم المنصور بن حزامة...
ومن الداخلين الى الأندلس...

مُغِيث؟!

« فاتح قرطبة...
« ونشأ مغيث بدمشق... ودخل الأندلس مع طارق فاتحها...
« وقدمه طارق لفتح قُرْطُبة ففتحها...
« ووقع بينه وبين طارق...
« ثم وقع بينه وبين موسى بن نُصير سيد طارق...
« فرحل معهما الى دمشق...
« ثم عاد ظافرًا عليهما إلى الأندلس...»

كيف أوقع مغيث بطارق
عند الخليفة؟!

« وذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أصغى إلى طارق في شأن سيده موسى بن نُصير... فعذبه واستصفى أمواله...
« أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق...
« وكان مغيث قد تغير عليه...
« فاستشار سليمان مغيثًا في تولية طارق...

« وقال له: كيف أمره بالأندلس؟...

« فقال: لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه!!! ولم يروا أنهم كفروا!!!

فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان!!!

« وبدا له في ولايته!!!

« فلقيه بعد ذلك طارق، فقال له: ليتك وصفت أهل الأندلس بعصياني... ولم تضمر في الطاعة ما أضمرت!!!

« فقال مغيث: ليتك تركت لي العِلْج[1] (الرجل) فتركت لك الأندلس!!!

« وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه مَلِك قُرْطُبة الذي حصل في يده فلم يمكنه منه...

« فأغرى به سيده موسى بن نُصَير وقال له: يرجع الى دمشق وفي يده عظيم من عظماء الأندلس... وليس في أيدينا مثله... فأي فضل يكون لنا عليه؟!

« فطلبه منه، فامتنع من تسليمه...

« فهجم موسى على العِلْج (الرجل) وانتزعه من مغيث...

« فقيل له: إن سرت به معك حيًّا ادعاه مغيث والعلج لا ينكر... ولكن اضرب عنقه...

« ففعل!!!

« فاضطغنها عليه مُغيث... وبالغ في أذيته عند سليمان»!!!

ومن الداخلين الى الأندلس:

---

(١) هو مَلِك قرطبة الذي أسره مغيث عند افتتاحها!!!

أيّوب بن حبيب اللخمي؟!

«ابن أخت موسى بن نُصَير...»

ومن الداخلين:

السَّمْحُ بن مالك الخولاني؟!

«ولاّه عمر بن عبد العزيز...

«وكانت دار سلطانه قُرْطُبة...

«استشهد بأرض الفرنجة في الوقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البَلاط...»

* * *

اقول:

وما زال صاحب «نَفْح الطيب» يُعدّد الداخلين من التابعين الى الأندلس ليس فقط وقت فتحها ولكن بعد ذلك!!!

وفاة . . .

موسى بن نُصَير . . .

وطارق بن زياد . . . ؟!

موسى بن نُصَير؟!

كان مولى لبني أمية... افتتح بلاد المغرب... وغنم منها أموالا لا تعد ولا توصف... وله بها مقامات مشهورة هائلة...

وكان موسى بن نصير هذا ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب...

قيل: وُلِّي موسى بن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة تسع وسبعين فافتتح بلادًا كثيرة جدًا، مدنا وأقاليم...

وقد ذكرنا أنه افتتح بلاد الأندلس...

وهي بلاد ذات مدن وقرى وريف... فسبى منها ومن غيرها خلْقا كثيرا... وغنم أموالا كثيرة جزيلة... ومن الذهب والجواهر النفيسة شيئًا لا يُحصى ولا يعد!!!

وأما الآلات والدواب فشيء لا يدرى ما هو؟!!

وسبى من الغلمان الحسان والنساء الحسان شيئًا كثيرًا!!!

وأسلم أهل المغرب على يديه!!!

وبث فيهم الدين والقرآن!!!

وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح في بلاد المغرب... وقتيبة يفتح في بلاد المشرق... فجزاهما الله خيرا...

وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه...

فدخل دمشق في يوم جمعة والوليد على المنبر...

وقد لبس موسى ثيابا حسنة وهيئة حسنة...

فدخل ومعه ثلاثون غلاما من أبناء الملوك الذين أسرهم... والأسبان...

وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة...

فلما نظر اليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت اليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة!!!

وجاء موسى بن نصير فسلّم على الوليد وهو على المنبر...

وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله...

فحمد الله الوليد وشكره على ما أيّده به ووسع ملكه...

وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة...

ثم نزل فصلّى بالناس...

ثم استدعى بموسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطاه شيئا كثيرا...

وقد جرت له عجائب في فتحه بلاد الأندلس وقال:

«ولو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج - ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى...»!!!

ولما قدم على الوليد قدم معه بثلاثين ألفًا من السبي!!!

وقدم معه من الأموال والتحف واللآلئ والجواهر ما لا يُحد ولا يُوصف!!!

ولم يزل مقيمًا بدمشق حتى مات الوليد وتولى سليمان...

وكان سليمان عاتبًا على موسى...

فحبسه عنده... وطالبه بأموال عظيمة!!!

ولم يزل في يده حتى حجّ بالناس سليمان في هذه السنة وأخذه معه...
فمات بالمدينة... وقيل بوادي القرى... وقد قارب الثمانين...
وقيل توفي في سنة تسع وتسعين!!!

★ ★ ★

اقول هذه رواية ابن كثير[1] عن مصير موسى بن نُصَيْر...
ولكن العجَب هو مصير القائد العظيم طارق بن زياد!!!
فماذا عن نهاية طارق؟!
هل توفاه الله... وفاة طبيعية هادئة؟!

مصير طارق بن زياد؟!

يقول الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه «دولة الإسلام في الأندلس ـ من الفتح الى نهاية مملكة غرناطة»:

«هذا ما كان من شأن موسى ومصيره... فماذا كان مصير طارق؟... هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت...

وكل ما هنالك أنها تشير الى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك في تعيينه واليا للأندلس مكان موسى... وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيث الرومي فاتح قرطبة، على ما كان يتمتع به طارق في الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ...

(١) في البداية والنهاية.

وذلك توجسا مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك القطر النائي من أقطار الخلافة...

ولقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ويسعى الى منافستهما والايقاع بهما...

وكان لوقيعته ومساعيه ضدهما أكبر الأثر في استدعائهما الى دمشق...

واذا كانت هذه الرواية لا تلقي ضوءا كافيا على مصير طارق...

فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقا لم يلق مثل المصير المحزن الذي لقيه موسى...

وأنه بالعكس قد استقبل في بلاط دمشق استقبالا حسنا...

وربما أحسن الخليفة فوق ذلك اثابته بدليل أنه فكّر في تعيينه واليا للقطر الذي ساهم في افتتاحه بأعظم قسط...

ولكن الرواية الاسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشيء...

ولا تذكر لنا أين ومتى توفي؟!!

بل تسدل على نهايته حجابا عميقا من الصمت...

وليس في وسعنا ازاء هذا الغموض الذي يحيط بسيرة طارق أن نتحدث عن صفاته وخلاله...

وكل ما نستطيعه في هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة التي ظهرت بوضوح في حروب المغرب وفتح الأندلس...

وهو بهذه الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين»!!!

* * *

اقول: لا تعجب من مصير طارق هذا... فقد انتهى كثير من

عظماء الفاتحين الى مثل هذا المصير الأليم!!!

إنّ الجالس على العرش أخشى ما يخشاه أن يظهر قائد من جيشه بفتوحاته الخارقة...

إنه يسارع الى طمسه مخافة ان ينتزع منه العرش!!!

شخصية . . .
طارق . . .
ابن زياد . . ؟!

ليس صحابيا ... ولا تابعيا ... ولكن كان مسلما ... مجاهدا ... وبطلا مقداما جسورا ... لا يهاب أن يموت ... فلم يمت في معركة خاضها ... وما أكثر ما خاض من معارك!!!

نعم لم يكن له شرف أن يكون تابعيا ... ولكن كان له شرف أن يكون من جنود تابعيّ عظيم اسمه موسى بن نُصَيْر!!!

البطل العظيم ... يختار طارقًا ؟!

عمل في جيوش موسى بن نُصير آلاف من الجند ... من البربر ومن العرب ... فلماذا ترك هؤلاء الألوف واختصّ طارقًا من دونهم جميعا ... بثقته فاختاره قائدًا عامًّا ؟!

ألأنه آنس فيه صفات لم تتوفر فيما سواه؟!

نعم ... فما هي هذه الصفات العليا التي اكتشفها موسى في طارق؟!

كان يبحث عن الموت؟!

قال طارق في خطبته الشهيرة قبل لقائه مع العدو:

«وانّي عند مُلْتقى الجمعين... حامل بنفسي على طاغية القوم لذُرَيق... فقاتِلُه إن شاء الله تعالى...» !!!

فهل وَفّى طارق بعهده؟!

«فلمّا رأى طارق لذُرَيق قال: هذا طاغية القوم...

«فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه...

«فقتله على سريره...» !!!

فاختطف طارقٌ النَصر بفعلته هذه...

فما قامت لجيوش القوط في إسبانيا من بعدها قائمة...

فقد قَتَلَ طارقٌ... لُذَريق بسيفه فقَتَلَ في جيش ملك إسبانيا أي أمل في النصر!!!

انقضَّ طارق على الطاغية... وطارق يريد أن يموت... فلم يمت ومات عدوّه!!!

هذه أولى الصفات العليا... التي كانت سارية في تركيب طارق بن زياد!!!

ولن يكون بطلا عظيما مَن لم تتوفر فيه تلك الصفة...

«احرص على الموت توهب لك الحياة» !!!

وقد كانت موفورة في طارق... وكانت سرّ عظمته!!!

الجرأة الخارقة؟!

« وصَيّر على مقدّمته طارق بن زياد...

فلم يزل يقاتل البربر.. ويَفُضّ جوعهم...

« ويفتح بلادهم ومدائنهم حتى بلغ طَنْجة...

« وهي قصبة مُلك البربر...

« فحصرها حتى افتتحها...»!!!

هذا هو طارق قبل أن يفتح الأندلس...

قائدًا على الغاية من الجرأة... يقود الجيوش فاتحا لبلاد المغرب كلها حتى بلغ طَنْجة عاصمتهم على شاطئ البحر!!!

وهذه الفتوحات الجبَّارة لا تتيسَّر لقائد إلا إذا كان على الغاية من الجرأة الخارقة!!!

الحرب الخاطفة؟!

كانت هذه الصفة بارزة في تركيب سيف الله المسلول... خالد بن الوليد... رضي الله تعالى عنه...

فكان يعاجل عدوّه قبل أن يتجهز للحرب... فيبغته فجأة ويجهز عليه قبل أن يفيق!!!

كذلك كان طارق بن زياد... تسري فيه صفة الحرب الخاطفة... ولا يترك لعدوه فرصة يلتقط فيها أنفاسه!!!

تجد ذلك واضحًا في اسلوبه في فتح مدائن الأندلس...

ما إن انتصر نصره الساحق الماحق في معركة شَذُونة التي جندل فيها

ملك إسبانيا... ومائة ألف مقاتل اسباني...

حتى تحرك بسرعة... يفتح سائر المدن الأندلسية... فأتمّ فتح اسبانيا في سنة واحدة!!!

وفي أي عصر؟!... ليس في عصر السرعة والفضاء الذي نتقاتل فيه بالصواريخ النووية... وإنما في عصر كانت أقصى سرعة فيه هي سرعة الخيل!!!

ومع هذا مَزّق طارق بلاد الأندلس كلها في عام واحد!!!

حتى ان موسى بن نُصَير... لم يجد وقتا متسعا ليدرك فيه طارقا قبل أن يتم فتح بلاد الأندلس كلها وينال فخرها وحده!!!

واشتد غضب موسى بن نُصَير على طارق...

كيف لم يترك له شيئا يفتحه وينال مفاخرة؟!!

ولكن طارقا كان يتصرف اوتوماتيكيا لا إراديا... هذه صفة أصيلة فيه لا يستطيع منها فكاكا!!!

ما كان طارق لئيمًا يريد أن يمكر بموسى بن نُصَير...

ولكن كان خاطفا... يريد أن يختطف النصر كما يختطف النسر المحلّق فريسته!!!

وعاتبه وعَنَّفه موسى بن نُصَير على أن أوغل في الفتح بدون إذنه!!!

ولكن هيهات هيهات!!!

وأنّى لطارق أن يسمع لهذا التوجيه؟!

إن صفة الحرب الخاطفة تدفعه دفعًا الى الانقضاض السريع... فلا يستطيع الأعداء إلا الاستسلام!!!

« وسار موسى خلفه في جيوشه...

« وطارق أمامه...

« لا يمرّان بموضع إلا فُتح عليهما!!!

«وقد دوّخت بعوث طارق وسراياه بلد إفرنجة (اي فرنسا)...»!!!

إنّ طارقا لا يقاوم!!!

إنه استاذ الحرب الخاطفة...

يُوضَع في سِلْك خالد بن الوليد!!!

ولا تحسبنّ أنّ قائدًا عظيما مثل موسى بن نُصَير... الذي دوّخ افريقيا امتدادًا من مصر حتى ساحل الأطلسي... وأمّرَ طارقا بغزو الأندلس... وكان عازما أن يغزو بعد الأندلس ممالك اوروبا كلها مارًا بالقسطنطينية... حتى يصل الى دار الخلافة بدمشق!!!

لا تحسبن أنّ مِثل هذا القائد العالميّ العبقريّ... يسير خلف طارق بن زياد... ويجعله على مقدمته فيما بقي من فتوحات بلاد الأندلس...

إلا إذا تأكد عنده أنّ طارقًا أهْل لذلك...

أهْل لأن يكون قائدًا عامًّا...

وأن يسير هو من ورائه... حبًّا لتلميذه النجيب... الذي فتح الأندلس في عام واحد!!!

صحيح أنه فوّت عليه فرصة ان يتحدث الناس أن موسى بن نُصَير هو فاتح الأندلس!!!

ولكن لا بأس... فإنّ الذي فَتَح الأندلس... هو أحد جنوده النجباء!!!

هل كان بربريًّا... أم كان عربيًّا؟!

«واستعمل (اي موسى بن نصير) على طَنْجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربري... ويقال إنّه من الصَّدِف...»

وقالوا:

«وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي واليًا بطَنْجة...»

وقالوا:

«بل انها لتختلف في أصله ونسبته... فقيل هو فارسيّ من همذان... كان مولى لموسى بن نُصَيرِ... وقيل انه من سبي البربر... وقيل انه بربري من بطن من بطون نفرة... وهذه فيا يظن أرجح رواية... فقيل إن طارقا تلقى الاسلام عن أبيه زياد... عن جده عبد الله... وهو اول اسم عربي اسلامي في نسبته... ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي الى نفرة... وهي القبيلة التي ينتمي اليها.» !!!

والآن: هل كان طارق عربيًا أم بربريًا أم فارسيًا؟!!

الجواب: بل كان حنيفا مسلمًا... وهذه هي نسبته الحقيقية بعد أن أسلم... أمّا كونه كان بربريا أو عربيا قبل ذلك... فلا وزن لذلك كله بعد أن شرف بالاسلام...

إنه الآن بعد إسلامه... صارت نسبته الاسلام...

وتلك هي عبقرية الإسلام التي ليس كمِثلها عبقرية في أي دين من الأديان...

كم من الأجناس دخلوا هذا الدين فاحتواهم بين ذراعيه الحانيتين... فصاروا جيما إخوة لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى!!!

ومن هنا فتح الإسلام العالَم كله... فتدفق الناس جيما يدخلون في دين الله أفواجا... لما يجدونه في الإسلام من مساواة بين الجميع «الناس سواسية»... ومن عدل يظلل الجميع «اعدلُوا» ومن أخوّة تؤاخي بين الجميع «إنَّما المؤمنون إخوَةٌ» !!!

وهذه الأندلس التي فتحها وأسَّسها طارق... كانت لا تدين

بالاسلام... فما دخلها طارق بجنوده... حتى تدفق أهلها الى الاسلام عن طواعية... لا عن إكراه!!!

ثمانمائة عام ودولة الاسلام قائمة في الأندلس... تزهو بدينها ودنياها على أوروبا كلها...

والناس يتوافدون عليها إمّا ليدخلوا في هذا الدين... أو يغنموا من دنياها الوارفة!!!

وأخيرا أقول: ما كان طارق بربريّا ولا عربيا... وإنما كان حنيفًا مسلما!!!

انظروا: ماذا صنَع الاسلام بطارق؟!

من أروع ما في هذا الاسلام... وكلّ الإسلام رائع...

انّه ليس فقط يسوّي بين الناس... بين العبيد والأحرار...

وإنما لا يقف عند ذلك... بل ويرفع الأرقاء الى أعلى مناصب السيادة في الدولة!!!

كيف كان ذلك؟!

وما دليل ذلك؟!

دليل ذلك ما حَدَث لطارق بن زياد...

إذا أخذنا بالرواية التي تقول إنه كان من سبي البربر...

فمعنى هذا أنه كان من ضمن أسرى موسى بن نصير... من ضمن مواليه...

هذه بداية طارق... فماذا صنع الاسلام بهذا الانسان؟!

آنس القائد المسلم العظيم موسى بن نُصَير... في مولاه طارق بن زياد...

آنس فيه عبقرية مكنونة تريد أن تتفجَّر . . .

فأعطاه الفرصة كأوسع ما تكون الفرصة أمام انسان!!!

جعله على مقدمة جيوشه التي اكتسحت إفريقية على امتدادها من مصر الى آخر نقطة فيها على ساحل الأطلنطي . . .

فما معنى هذا ؟!

معناه أن مولي موسى بن نُصَير . . . أصبح قائدًا عامًا لأعظم وأكبر جيوش ظافرة منتصرة في إفريقية . . .

الجيوش التي اكتسحت المقاومة على امتداد الساحل الإفريقي كله . . .

بلُغَة اليوم . . . ليبيا والجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا . . . والصحراء الكبرى . . .

لقد صار طارق قائدا لألوف القوات المحاربة الظافرة . . .

وما زال يسير منتصرًا ظافرًا على رأسها . . . حتى انتهى الى طَنْجة . . . آخر نقطة على الساحل . . .

وعيَّنَه الأمير موسى بن نُصَير حاكما لطَنْجة عاصمة البربر وإفريقية!!!

وهكذا أعطى الاسلام طارقًا عطاء ليس كمِثله عطاء . . .

أعطاه حريته . . . ثم فَجَّر مواهبه . . . فتلألأت عجائب عبقريته العسكرية . . .

فهو القائد العام لأعظم معارك خاضها الجيش المنتصر . . .

فهل انتهى عطاء الاسلام لطارق عند هذا ؟!

كلا . . . وإنَّما أمره الأمير موسى بن نصير . . .

أن يغزو الأندلس!!!

انظروا . . . من مولى من الموالي . . . الى أعظم فاتح في العالم ؟!!

وطارت نَفْس طارق شعاعا!!!

وجعل يفكّر في نفسه؟!

أهكذا هذا الإسلام؟!!

من مجرد مولى من موالي موسى بن نُصَير...

الى قائد عام القوات المسلحة... وأيّ قوات؟!

ليست مجرد جيوش مرصوصة... في معسكراتها... ولكن جيوشًا فاتحة تخوض المعارك تلو المعارك!!!

وأفاق البطل طارق بن زياد من أفكاره... ليتحرك على رأس جيشه ليعبر المضيق... ويدخل الى جزيرة الأندلس فاتحا!!!

هذا هو الإسلام... أعظم مفجّر لمواهب الإنسان...

يفتح أمامه قنوات الإشعاع لتتشعشع ذات اليمين وذات الشمال!!!

وفتَحَ طارق بلاد الأندلس... وتحوّل الفاتح العظيم الى أسطورة يتناقلها العالم كله معجَبا!!!

هذا شيء من عجائب هذا الاسلام...

فيه متسع لكل انسان ليباشر مواهبه الى أقصى طاقاتها!!!

وهذا هو طارق دليلًا لا يُناقش على ما إليه ذهبنا!!!

على ألذين يبحثون عن العزّة... عليهم بالإسلام!!!

وعلى الذين يبحثون عن عبقريتهم وكيف يفجّرونها عليهم بالاسلام!!!

وعلى الذين يريدون الفوز في الدنيا أو في الآخرة عليهم بالاسلام!!!

وعليهم أن ينظروا في ذلك الى طارق بن زياد... وكيف رفعه الاسلام من شخص بسيط... الى أعظم قائد... وأروع فاتح في عصره!!!

أوجه الشَّبه ... بين طارق بن زياد ...
وخالد بن الوليد ؟!

قد يبدو هذا عجيبا!!!

ولكن لا عجَب ... فهناك تشابه كبير بين شخصية سيف الله المسلول ... وشخصية طارق بن زياد!!!

ورغم أن بينهما نحو مائة عام ... او بين انتصارات كلّ منهما وانتصارات الآخر مائة عام ...

إلا أنهما يتشابهان الى حد التطابق!!!

صعد خالد الى القيادة رأسا ... ولم يمرّ على التسلسل التقليدي للترقي في الجيوش ... ولكن بمجرد أن أسلم في السنة الثامنة ... أخذ مكانه في القيادة رأسا ... وهذا يدل على امتيازه المعترف به من الجميع ...

وكذلك طارقا ... لم يمض على إسلامه على يدي موسى بن نُصَير ... سوى أيام ... حتى رفعة موسى قائدا عاما لجيوشه التي دوَّخت جيوش البربر الجرارة ... فقضى به وتحت رياسته على مئات الألوف التي كانت تتدافع متتابعة الى الموت!!!

وكذلك خالد ... حين ألقاه الخليفة الأعظم أبو بكر ... على مرتدة العرب فدوّخهم ... وشابت من هوله النواصي!!!

فهو بطل معركة اليامة والحديقة في الردَّة ... والمعارك الكبرى في فارس ... ومعركة اليرموك ضد الرومان!!!

أينا سار ... سار المجد محلّقا على هامته ...

كل ذلك كان من رجل لم يمض على إسلامه سوى سنين معدودات!!!

كذلك طارق بن زياد ... أسلم على يدي موسى بن نُصَير ... فاقتحم

سابقيه جيعا الى مقام القيادة... فلما استوى... استوى له المجد عريضا...

فأخضع البربر في معارك خالدة...

ثم صدر اليه الأمر من موسى بن نُصَير بفتح الأندلس...

فَطارت نفسه شعاعا من الفرح والاستبشار...

وألقى بنفسه على مائة ألف من القوط على رأسهم البطل المَلِك «لُذَريق»...

وانقض كما كان ينقضّ خالد بن الوليد على عدوّه...

فاحتزّ طارقٌ رأس «لُذَريق» لفوره... فرُعب هنالك المجرمون وقد كانوا مائة ألف أو يزيدون!!!

وانتصر طـارق نصره الخارق... فـانفتحــت بلاد الأنــدلس على مصراعيها أمام البطل العظيم...

تماما كما كان يحدث في معارك سيف الله المسلول...

لحظات من البأس الصادق... ينزل بعدها النصر الساحق!!!

ليس ذاك وحده... وجه الشبه بين البطليْن...

بل أخرى أعجب وأغرب... أنهما يتشابهان في المصير...

فإن نهاية خالد بن الوليد... أنه عاد الى المدينة... وحيل بينه وبين الاشتراك في الحروب...

وهو فارسها الأوحد...

وهذا شاق جدًّا على مثل هؤلاء الأفذاذ... عباقرة العسكرية...

أعظم قائد عسكري في العالم... خالد بن الوليد... يُزْعم أن يلازم العاصمة... المدينة... حتى جاءه الموت على فراشه... وجعل يتأوه أنَّه يموت كما يموت البعير!!!

وكذلك طارق بن زياد أعظم قائد عسكري في عصره... يستقدمه

الخليفة الأموي الى العاصمة... ويستبقيه بعيدًا عن مجاله الطبيعي... ميدان الحرب والنزال...

ويموت كما يموت البعير... ويُنسى حتى أن التاريخ لم يسجل كيف مات ولا أين مات؟!!

الخلاصة أنه مات... كما مات خالد بن الوليد... وقد جبل بينه وبين السيف والحرب!!!

عظيمان... أحدهما صحابيّ جليل شهير... صعد الى القمة رأسًا... فاستوى... يقتعد المجد ذات اليمين وذات الشمال... ثم انتهى الى المدينة كأنه لا صلة له بالحروب!!!

والآخر بطل عظيم فتح شمال افريقيا... ثم فتح دولة عظمى لأول مرة من أولها الى آخرها في أقلّ من سنة واحدة...

ثم كان مصيره إبعاده عن كل ذلك واستبقاءه بدمشق!!!

تطابق عجيب في التفوق... والانتصارات... ثم في الإبعاد عن مواقع انتصاراتهم... ثم الانتهاء الى نهاية يكرهها الأبطال!!!

ولا تحسبنّ أنّ هذا محض صدفة... ومجرد مقادير!!!

كلا... ولكن اذا تطابقت موجة انسان مع موجة انسان آخر...

تطابقت مقاديرهما أوْ كادت... لأن الدور الذي سوف يلعبه كل واحد منهما في التاريخ... هو نفس الدور الذي لعبه أخوه!!!

فإذا تأملت خالدًا... وصعوده الى القمة ثم ابداعه على مستوى المعارك العالمية... وجدت بينه وبين طارق شَبَهًا كبيرا...

جرأة خارقة... ثم حرب خاطفة... ثم نصر... ثم شهرة يتحدث بها العالم كله... ثم عَزْل والبطل في أوج انتصاره... ثم خمول في زاوية النسيان!!!

ما الحِكْمة من هذا البلاء؟!!

أعظم حِكْمة فيه... أن يعلم الناس أنّ النصر من عند الله... لا من عند هؤلاء الأبطال...

وهذا درس في التوحيد عظيم!!!

وحِكْمة أخرى... هو تجريد البطل من جميع مقوماته التي يعتزّ بها... عبقريته... مجده... شهرته... قوّته... عزّته... كل ذلك يُسحب منه... فيتلفت يمينا وشمالا... فلا يرى من حوله أحدا... وقد كان ملء الأسماع والأبصار... وأنه أصبح لا يملك شيئا... ولا يستطيع شيئا...

هنالك يعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه...

هنالك يرفعه الله عنده رفعا عظيما...

درجاتٍ منه... كل درجة كما بين السماء والأرض!!!

إنه تعالى اختار لهم أن يكون أجرهم خالصا في الآخرة... وهذا أعلى وأرقى!!!

المزيّة لا تنافي الأفضليّة؟!

قد يقول قائل: كيف تسوّي بين خالد وهو ما هو... وبين طارق وما هو بشيء الى جوار خالد؟!!

وأقول: المزيَّة لا تنافي الأفضلية...

خالد هو خالد... مقامه محفوظ معلوم متفق عليه...

هو سيف الله المسلول... الذي له عند الله ما لا يتصوَّر من الأجر العظيم...

وطارق هو طارق... ليس بصحابي ولا تابعيّ... ولكن تابع

التابعيّ... موسى بن نُصَير...

ولكن الله وهبه ميزة... فامتاز في عبقرية الحرب والسياسة... ففتح دولة بأكملها في سنة واحدة... وحكمها في تلك السنة أحسن سياسة وأعدل حُكْمًا!!!

والمجال هنا ليس مجال: مَن هو أفضل؟!

فمن البديهي أن خالدًا أفضل وأرقى وأعظم أجرا!!!

ولكن المراد هو تحليل شخصية طارق... وفتْح هذا التحليل بمفتاح التشابه بينه وبين شخصية خالد في كثير من النواحي!!!

فمعلوم أنَّ خالدًا كان يقود جيوشا فيها مَن هو أفضل منه عند الله... لأنه أقدم هجرة... وأسبق إسلاما...

ولكن خالدا كان يمتاز على هؤلاء بعبقريته العسكرية التي كانوا يُسلِّمون بها تسليما!!!

ومرَّة أخرى: المزيَّة لا تنافي الأفضلية!!!

طارق كان مُؤَهَّلًا... لفَتْح العالَم كله؟!

كيف كان هذا؟!

اقول: قالوا عن موسى بن نُصير...

وقد جرت له عجائب في فتحه الأندلس وقال:

«ولو انقاد لي الناس... لقدتهم... حتى أفتح بهم مدينة رومية (وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج)...

«ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى...»!!!

اي أنّ موسى بن نُصَير بعد أن أتمَّ مع طارق بن زياد فتح جميع مدائن الأندلس... ثم دخلا الى جنوب فرنسا... ولمس بحُكم خبرته الطويلة في معارك افريقيا والأندلس... وتذوقه لذّة النصر المتتابع... حتى قالوا: «لم يُهزم له جيش قطّ»!!!

جعل يفكر فيما هو وراء ذلك كله...

لماذا لا يندفع بجيوشه المنتصرة الى اوروبا كلها... مندفعًا من فرنسا... ثم الى ايطاليا... فيفتح روما أعظم عواصم الأعداء... ثم يندفع الى القسطنطينية فيفتحها... ثم بعد أن يتمّ فتح أوروبا كلها... يميل عائدًا الى دمشق... الى دار الخلافة...

وبذلك تتصل دمشق بالأندلس عن طريق ممالك اوروبا... كما هي متصلة بدمشق عن طريق إفريقيا...

وبذلك يكون الفتح الأسلامي قد أطبق على العالم كله!!!

وخَطَّط القائد الظافر العظيم موسى بن نُصَير لذلك... وجعل يعدّ العدّة... ويُدَبِّر الأمر...

وكان في تقديره أن سقوط دول اوروبا سيكون أسهل من سقوط إفريقيا والأندلس... فها هي الأندلس وقد كانت من دول أوروبا العظمى قد تساقطت خلال عام واحد...

وليست أوروبا بأعظم من الأندلس... وإنما هي سوف تنتهي الى نفس مصير الأندلس...

كل ذلك كان جميلا... وواقعيا وذا أثر عظيم على مصير العالَم الى أن تقوم الساعة...

ولكن الخليفة في دمشق فزع من الفكرة الفذّة...

وقال في نفسه: إن انتصر موسى بن نُصَير... فمن ذا الذي يستطيع أن يقاوم جموحه وقد دوَّخ جيوش العالم كلّها؟!

ربما انتزعني من عرشي... وسوف لا أستطيع مقاومته... لأن الجماهير دائما مع القائد المنتصر!!!

وإن انهزم فقد أضاع جيوش المسلمين في بلاد الأعداء!!!

وآثر الخليفة عرشه على كل خيرٍ يأتي من تلك المغامرة الرائعة... وبعث الى موسى يستقدمه وطارقًا... فلما استبطأه بعث بمَن ينزعه نزْعا الى دمشق... ويصدّه عمّا نَوَى!!!

ولو قد تسامى الوليد بن عبد الملك على شهواته... وآثر مصلحة البلاد والعباد... ووافق موسى على ما يزيد وأذن له وأَمَدَّه... لفتح موسى بن نُصَيْر باقي ممالك أوروبا كما فتح أعظم ممالكها اسبانيا...

ولامتد قوس النصر من اسبانيا الى القسطنطينية ثم الى دمشق...

ولرفرفت لا إلَه إلا الله... فوق اوروبا كلها من الأندلس الى القسطنطينية... ولتغير مسار التاريخ الى يوم القيامة!!!

ولكن انكمش الوليد بن عبد الملك على نفسه... وآثر أن يرجع موسى بن نُصَيْر عن عَزْمته الخارقة الجبَّارة...

وأرغم موسى بن نُصَيْر على العودة الى دمشق ومعه طارق...

فانطلقا... موسى غضبان أسفًا... وطارق حزينا حُزنا بالغا!!!

اقول: كل ذلك كان حديثا عن موسى وتخطيطه الذي كان ينوي تنفيذه... ولكن ما علاقة ذلك كله بطارق بن زياد؟!

اقول: كما كان طارق على مقدمة جيوش موسى في فتح إفريقية... فدوَّخ به ممالك إفريقيا حتى طَنْجة على شاطئ البحر...

وكما كان طارق على مقدمة جيش موسى بن نُصَيْر حين أمر طارقًا بفتح الأندلس...

فإنّ طارقًا كان سيكون على رأس جيوش موسى بن نُصَيْر... حين يشرع موسى في فتح ممالك أوروبا...

اي أنَّ طارق هو القوة الفعلية التنفيذية التي يعتمد عليها موسى في قيادة جيع فتوحاته الظافرة...

فلو أن الخليفة قد أذن لموسى بفتح أوروبا بعد فتح الأندلس...

لكانت الصورة العملية لذلك أنَّ موسى سوف يأمر طارقًا في البداية: يا طارق... افتح فرنسا...

فيقول طارق: بإذن الله نفتحها...

فيندفع القائد الظافر طارق بن زياد الى سهول فرنسا... على رأس جيوشه التي لم تُهزم قطّ...

فإذا أتمّ فتح فرنسا... قال له موسى: يا طارق... تقدَّم الى قلعة الأعداء... الى روما...

فيندفع طارق على رأس جيوشه القاهرة الظافرة...

يُدكدك روما على مَن فيها!!! فتسقط كما سقطت الأندلس وكما سقطت فرنسا!!!

فإذا أتمّ فتح روما... قال له موسى: اذهب الى القسطنطينية... التي استعصت على المسلمين حتى الآن...

فيندفع طارق الى المدينة العظمى... وتحت قيادته عشرات الآلاف من جنود الله الظافرين...

فتسقط القسطنطينية تحت أقدامهم!!!

ويرفع طارق بن زياد بيديه راية لا إله إلا الله على جبال القسطنطينية!!!

ثم يندفع طارق على رأس جيوشه التي لم تُهزم قطّ... الى دار الخلافة الى دمشق!!!

كانت هذه هي الصورة العملية التي كانت سوف تكون لو أنّ الخليفة وافق موسى على فتح أوروبا!!!

ولكن الخليفة أبَى!!!

فأضاع على الإسلام مجْدًا لا يُعَوَّض!!!

اقول: لو نَفَّذ موسى بن نُصَيْر تخطيطه لفتح أوروبا ... فإنَّ طارقا كان سيكون هو الأداة التنفيذية لتنفيذ ذلك التخطيط العجيب!!!

أي أنَّه كان مؤهَّلا لفتح العالم كله...

وكان سوف يكون القائد الأوحد في عصره الذي فتح العالم كله... ولم يُهزَم له جيش قطّ!!!

فانظر بعد ذلك مدى الآلام التي كانت تعتصر طارقًا حين يُنْزَع من عرشه... عرش النصر... المؤهل لفتح ما تبقى من العالَم... ليُلْقى وحيدا في زوايا النسيان؟!!

بلاء رهيب... تزول منه الجبال!!!

درجة... طارق بن زياد ؟!

مِن الجرأة غير المستحبة... أن نتحدث عن درجة طارق عند الله تعالى... حيث أنَّ الله أعلم بعباده...

ولكن هناك إشارات تشير في وضوح الى درجة... أو مقام طارق عند ربه سبحانه...

الاشارة الأولى قوله تعالى:

﴿لا.. يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وأنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وأنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .﴾

[النساء ٩٥ و٩٦]

وفي تفسيرها ورد في الحديث:

أخرج مسلم، وأبو داود، والنسائي . . .

عن أبي سعيد:

« أن رسول الله ﷺ قال:

« مَن رضي بالله تعالى ربًا وبالاسلام دينًا وبمحمد عليه الصلاة والسلام رسولًا ، وجبت له الجنة . . .

« فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليّ يا رسول الله . . .

« فأعادها عليه . . . ثم قال ﷺ :

« وأخرى يرفع الله تعالى بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . . .

« قال: وما هي يا رسول الله ؟

« قال: الجهاد في سبيل الله تعالى » .

اقول: هذه درجة طارق بن زياد عند الله تعالى . . . ان شاء الله تعالى !!!

واشارة اخرى الى درجة طارق عند الله تعالى . . .

« أنَّ رسول الله ﷺ قال:

« من دعا إلى هُدًى كان له من الأجْرِ مثلُ أجور من تبعهُ لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئًا . . .

« ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مِثلُ آثام من تبعه لا ينقصُ ذلك من آثامهم شيئًا » .

[أخرجه مسلم]

قالوا: صريحٌ في أنّ مَن سنَّ سُنّة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها الى يوم القيامة !!!

والآن: ما هي درجة طارق عند الله تعالى؟!

أوّلا... لا يعلم ذلك إلا الله سبحانه...

ثانيا... يمكن استشفاف ذلك مما ورد في الآيات السابق ذكرها... والحديث الذي مرَّ آنفا فنقول:

رجل كان من رجال البربر الحيارى لا يهتدون سبيلا... ساق الله اليه موسى بن نُصير غازيا... فوقع في سبي موسى...

ثم دخل الاسلام كما دخلت أمم من قومه...

ثم رفعه موسى الى القيادة العامة لما آنس فيه من استعداد للقيادة عظيم...

ثم دَوَّخ به جحافل المتمردين من البربر وغيرهم...

ثم أمره بفتح الأندلس... ففتحه في عام واحد!!!

فانظر كم يبلغ أجر طارق عند الله تعالى؟!!

كان سببًا في اسلام ملايين من أهل إفريقية حين استسلموا ثم أسلموا!!!

وكان سببا في دخول الأندلس بأكملها في الاسلام عن طواعية...

ثم مكث الاسلام في دولة الأندلس ثمانية قرون...

فكم من الناس دخل الاسلام خلال تلك القرون الثمانية؟!

كل ذلك يضاف ان شاء الله الى أجور طارق عند الله تعالى...

فكم تبلغ درجته عند الله؟!

شيئًا وراء العقول... أجرًا عظيما عظيما عظيما!!!

كما قال في كتابه العظيم:

﴿... وَفَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ عَلى الْقاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا.

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وكانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.﴾!!!

وكما قال رسول الله ﷺ:

« وأخرى يرفع الله تعالى بها العبد مائة درجة في الجنة...
« ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض...
« قال: وما هي يا رسول الله؟...
« قال: الجهاد في سبيل الله تعالى.»

هذا للمجاهد في سبيل الله... لكل جندي من جنود الله... أيًّا ما كان...

فكيف بمن كان قائدًا عامًّا لآلاف من هؤلاء... يُقْدِم بهم على الموت اعلاءً لكلمة الله؟!!

خلاصة شخصية طارق؟!

كان موهوبًا!!!

وكان محبوبًا!!!

أمَّا الموهبة فقد برزت منه حين تفوق على الآلاف وارتفع فوقهم... الى القيادة سريعا!!!

وحين تلألأت موهبته التي آتاه الله وخصَّه بها... في انتصاراته المتتابعة... فلم يُهزم له جيش قطّ!!!

وهذا فضل الله يُؤْتيه من يشاء!!!

لقد كان طارق موهوبًا... ولكن كيف كان محبوبًا؟!

قالوا: « وذُكر أن سليمان بن عبد الملك أراد أن يصرف سلطان الأندلس الى طارق...
« فاستشار سليمان مُغيثًا في تولية طارق...
« وقال له: كيف أمره بالأندلس؟...

«فقال: لو أمر أهلها بالصلاة الى أي قبلة شاءها لتبعوه... ولم يروا أنهم كفروا!!!

«فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان...»!!!

اقول: فكَّر الخليفة أن يولّي طارقًا حاكمًا على الأندلس... ثم تراجع حين سمع تقرير مغيث!!!

فما دلالة هذا التقرير؟!

دلالته أنَّ طارقًا كان محبوبًا من جنده حبًّا شديدا...

«لو أمَرَ أهلها بالصلاة الى أي قبلة شاءها لتبعوه»!!!

وهذه الصفة يشابه فيها سيف الله المسلول... فما رآه جنوده إلا اشتعلوا له حبًّا وتقديرا!!!

فكيف لا يَحبّ أهل الأندلس البطل الميمون الذي لم يُهزَم قطّ؟!!

تم

* * *

سبحانك اللهم وبحمدك

أشهد أن لا إله إلا أنت

أستغفرك وأتوب إليك؟

فهرس

صفحة